نسخة معالجة وصفحات فردية

يوسف المحيميد

فخاخ الرائحة

رواية

طبعة ثانية

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبسامة

www.ibtesama.com

المعالجة وتصغير الحجم
التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

يوسف المحيميد

فخاخ الرائحة

رواية

زخارف إشارة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

المحتويات

سرّ الغناء الحزين	١٧
رحلة العذاب الأبدي	٢٥
وثائق رسمية	٣٣
عراك طويل	٤١
جسد ناضج كثمرة	٤٩
رجولة مسلوبة	٥٩
عراك مع الحرس	٦٧
طفولة مستباحة	٧٣
شهوة القمر	٧٩
سجناء الرمال	٨٥
رحلة الأحلام الشائكة	٩١
الخطيئة والعقاب	٩٧
اكتفاء	١٠٥
بطولة الذئب	١١١

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

٩

– إلى أين؟

سأله موظف التذاكر وهو منهمك في ترتيب الأوراق النقدية حسب فئاتها في الدرج، ولمّا لم يسمع صوتاً، رفع الموظف الشاب رأسه ونظر من كوّة الزجاج الدائرية، تجاه الواقف أمامه، بشعيرات ذقنه البيضاء الهائشة، وعينيه الجاحظتين قليلاً، وشاربه الكثيف وقد غطى شفته العليا قليلاً.

لم يكن طراد قد قرّر إلى أين سيغادر، المهم أنه دخل إلى صالة السفر، متجهاً إلى أحد موظفي التذاكر، بعد أن كره هذه المدينة تماماً، وكره أهلها جميعاً، وبعد أن نام ليلتين في قبو أحد مساجدها القديمة، وتجوّل في أنحائها وشوارعها نهارين كاملين، داخلاً في حدائقها وأسواقها، نافضاً دكاكينها واحداً

www.ibtesama.com

واحداً، كأنما كان يطمئن نفسه أنه لن يفقد شيئاً ذا بال بتركه المدينة التي عاش فيها سنين، بعد أن لجأ إليها صبياً طائشاً وأعزل، تعلّم في ليلها الحروف وتهجّأ الكلمات حرفاً حرفاً، وأنهكه العمل الدائب في نهارها المحرق، من عامل يومية إلى فرّاش، من جندي حارس في بنك، ثم حارس بوابة قصر، إلى مراسل في وزارة. اللعنة على هذه المدينة، على هؤلاء الحضر الذين جعلوني أفقد كرامتي وشهامتي، هل هم عرب، أم ماذا؟ سأل طراد نفسه، وقد أعاد موظف التذاكر سؤاله:

– إلى أين يا عم؟

يا الله، ماذا قال هذا الولد؟ قال ياعم، نعم، كان يقصدني تماماً، إنه ينظر نحوي ويقول يا عم!! يا ولدي المهذّب من أين طلعت عليّ، لا تقل يا عم، فتجعلني أغيّر فكرة الهجرة من هذه المدينة الملعونة، ربما لو شاهدت غيرك، ممن هم أصغر منك سنّاً يشدّون ثوبي، ويركلونني على مؤخرتي، ربما لو رأيت أذني اليسرى التي أخفيها بطرف شماغي عن الناس لغيّرت رأيك، وشتمتني أمام الناس جميعاً، ربما صرخت في وجهي: اغرب من هنا أيها الشحاذ!!

– ألا تسمعني يا عم؟ إلى أين تنوي السفر؟.

قال ذلك بعد أن نهض عن كرسيّه مقترباً بوجهه من كوّة الزجاج الدائرية.

– لا أعرف.

www.ibtesama.com

– إذاً، استرح قليلاً هناك على مقاعد الانتظار إلى أن تقرّر، انظر، خلفك آخرون ينتظرون دورهم..

انسحب طراد بتثاقل بعد أن رشق نظرة خاطفة على الطابور الطويل وراءه، ومشى ببطء إلى آخر مقعد في الصالة، حيث لا شيء خلفه إلاّ جداراً زجاجياً ضخماً، تأمل من وراء الشارع الذي يستعد للخلود إلى النوم، حيث المدينة تفرك عينيها بفعل النعاس بعد أن تأرجح قرص الشمس الأصفر في الأفق البعيد.

هناك، في مبنى الوزارة الضخم مشّطت قدماي الممرات كلّها، حاملاً دلّة القهوة النحاسية اللامعة، وبيدي اليمنى ثلاثة فناجين صينية مزركشة، أقف بباب المكتب وأصبّ القهوة رافعاً الدلة عالياً، وأنا أشعر بالمتعة، دائراً على الضيوف بقهوة رائحتها توقظ الرأس، وحين يشير نحوي مدير الشؤون المالية بيده، بطريقته المتعالية، أنصرفُ فوراً!! كنت أكره تعاليه وغطرسته، ولا أعرف لم يعاملني هكذا، رغم ذلك كنت أتحامل على نفسي، وأكظم غيظي وغضبي، لأبقى في وظيفتي تلك، بعد أن فقدت عملي السابق كحارس لتلك البوابة الضخمة، كنت مخلصاً في عملي، لا يغمض لي جفن، لذلك منعت ذاك الرجل الذي أرادت سيدة القصر دخوله، منعته لأن سيدي حذّرني من ألاّ يدخل من لا أعرفه في غيابه، بعد تلك الواقعة طردني هذا السيد اللعين من حراسة قصره، دون أن يشرح لي الأسباب، هل دبّرت لي تلك السيدة مكيدة ما، هل قالت عني باطلاً، أو لفّقت لي تهمة ما، أو أنني أطيل النظر إلى صديقاتها اللواتي يعبرن البوابة، وكنت أفعل لأتأكد منهنّ قبل أن أسمح لهنّ بالدخول، كنت أتأكد مما إذا كنّ نساء فعلاً أم رجالاً، حرصاً على سلامة

www.ibtesama.com

من بداخل القصر؟ هكذا وبدون مقدمات أو أسباب وجدتني مرمياً في الخارج، لا شيء أحمله غير حقيبة ملابسي، إلى أن وجدت تلك الوزارة التي أهدرت عمري في ممراتها، وفي غرفة صنع الشاي والقهوة الضيّقة!!

بعد أن ضاقت بقدميه الشقيتين الطرقات، ولفظته المكاتب الفارهة كلها، وشردته الجهات والوجوه والمنازل، قرّر أن يزاحم العمال الهنود والبنغال في تنظيف السيارات، كان يقول لنفسه بصوت مسموع: ما فيها عيب!! لكن الصوت الغائر في داخله يعاتبه، يا ابن القبائل الحرّة، يا ابن البراري والوهاد الفسيحة، كيف تقبل أن تصير خادماً أو ماسحاً أو عبداً!! كلنا عبيده، يعزّي نفسه، ومن ساحة مواقف الوزارة دخل إلى مكاتبها بوساطة مدير الشؤون المالية، الذي مارس غطرسته عليه، وإذلاله يومياً، حتى أمام ضيوفه ومراجعيه، إلى أن قلب القهوة أمامه غاضباً ذات ظهيرة، حين صوّت له: يا ثور!! فأدار وجهاً شرساً وعزيزاً كان قد نسيه في البراري والغياض والأودية، كان قد رماه خلفه في الخباري وتحت أشجار العوشز الهائشة كرؤوس جن، أدار وجهاً هائجاً وقال له إنه ليس ثوراً، بل هو ابن قبيلة، وإن القدر وضعه هنا أمامه، وإن كان ثوراً فهو بسبب عمله هنا معه!! قال كلاماً كثيراً كان قد خبّأه ثلاثة عشر عاماً!! خرج بعد أن شعر براحة كبيرة، برحابة هائلة في صدره، غير أنه عاد ثانية إلى الوزارة ذاتها، بعد أن ساعده بعض الموظفين، فاعتذر من مديره، وقبل عذره على أن يكون مراسلاً لدى موظفي الإدارة المالية.

انتبه طراد فَزِعاً على صوت المذيع الداخلي وقد أعلن عن رحلة ما، وأن على المسافرين التوجّه إلى الحافلة رقم ٨ فوراً. شاهد

www.ibtesama.com

أناساً يتزاحمون على باب الحافلة، ولاحظ على الطاولة أمامه كأس شاي يتصاعد بخاره عالياً، لم يسعف الوقت صاحبه لشربه، فتركه راكضاً كي يحتل مقعداً مجاوراً للنافذة داخل الحافلة، مدّ طراد يده المرتعشة، ورفع الشاي إلى شفتيه، وتذوّقه بامتنان مفرط، ثم لفّ شماغه جيداً حول وجهه، الذي استدار إلى حائط الزجاج الخلفي، ثم سحب نَفَساً عميقاً وقد تأمل المدينة بأبراجها ومنائرها تغرق في الظلمة، يا إلهي، هل ما حدث يستحق أن أهجر المدينة بناسها ومساكنها الطينية الأليفة وحاراتها الحميمة الدافئة، هل كنت على حق، بأن أعتزل الوظيفة، يضحك بسخرية، وهل تسمي ذلك العمل وظيفة، هل دور مسلٌّ أو مهرّج في ثوب مراسل يسمى وظيفة، مرّة يجرّ هؤلاء السذّج ثوبي من الخلف، ومرة يمد أحدهم رجله في الممر بين الطاولات كي أقع على وجهي، ومرّات كثيرة يحاولون سحب شماغي الذي أتلثّم به، وهو الشيء الذي أحتمي به عن الناس والفضوليين، فأتشبّث به بكلتا يديّ، كي لا ينزعوه عن وجهي، فيجدون في ذلك فرصة للتسلية، إذ يقوم أحدهم بغمزي في مؤخرتي، لينفرط الآخرون في ضحك متواصل وماجن، وحين أغضب أحياناً وأعتصم في غرفة الشاي والقهوة، يمرّ عليّ بدّاح، وهو أصغرهم وأعلاهم ضحكاً في ساعات هزلهم، فيرضيني بورقة من فئة العشرة ريالات، لأعود إلى خدمتهم وأنا أشعر بالانكسار والأسى والغربة!!

طلب منه في صالة السفر عامل نظافة بنغالي عليه بذلة زرقاء أن يرفع قدميه، فرفع قدميه وهو يشعر بالاعتزاز لحظة أن مرّر العامل حبال ممسحته من تحت قدميه كي يمسح البلاط، أراد أن يسأل العامل عمّا إذا كان سيترك عمله ويستقيل لو أفرط أحد مسؤوليه

www.ibtesama.com

في إهانته، لكنه عدل عن ذلك، وسأل نفسه عمّا إذا كان تهوّر بترك عمله، وانقطاعه عنه لثلاثه أيام متتالية، دون أن يقدم عذراً أو استقالة، كي يصفّي حقوقه!! ولكن أيّ حقوق تلك يا طراد، وهل لك حقوق في هذه المدينة، ثم من سيضمن حقوقك، ألم تكن قرداً يتسلى به هؤلاء الملاعين، في أوقات فراغهم!!

كان نهاراً سيئاً حين أحضرت شاياً لبدر بكأسه الأسود المعروف، لم أكن أرفض له طلباً وهو الذي توسّط لإعادتي إلى عملي بعد خصامي مع المدير، حيث لا يمكن أن يرفض له طلب في الوزارة، وأبوه صاحب أكبر شركة للأدوات والمعدات المكتبية، ويؤمن للوزارة كافة احتياجاتها من أثاث مكتبي ومعدات تصوير وأجهزة، مقابل نسبة عالية من مبلغ الشراء يحصل عليها مدير الشؤون المالية، كيف يرفض له طلب هذا المدير النجس وهو يحقق له أضعاف راتبه!! المهم أنني دخلت مكتبهم، وما أن وضعت كأس الشاي على مكتب بدر ابن العائلة الثرية، حتى انقضّ عليّ أحد هؤلاء الموظفين الشياطين زاعقاً، مما أسقطني أرضاً، فأطلقوا ضحكاتهم على رأسي كالرصاص، وانهال أحدهم ساعياً لأن ينزع عني شماغي الملفوف حول وجهي بإتقان. ولأنني لم أكن مستعداً للقبض على شماغي، إذ كنت أحاول أن أعتمد على يديّ لأنهض ثانية، فلم أشعر إلاّ بشماغي طائراً في يده اللعينة، فسارعت لأضع يديّ حول أذني، مما جعلهم يظنون أنني أقفل أذنيّ بسبب ضحكاتهم العالية، دون أن يشكّوا أنه ليست لديّ أذن يسرى، فقمت واندفعت صوب الذي يطوّح بشماغي مثل رعاة البقر الأمريكيين، وأبقيت يدي اليسرى على أذني اليسرى، محاولاً أن أخطف شماغي بيدي اليمنى، وما أن أمسكت بطرف

www.ibtesama.com

الشماغ حتى حاولت أن أخلّصه من قبضته، لكنه سحبه بغتة بعنف مستخدماً يديه معاً، مما جذبني نحو حافّة طاولة مكتبه، فاستندت بيديّ معاً لأتلافى اصطدام وجهي بالطاولة، لكن ذلك لم يسعف فمي الذي ارتطم بخشب الطاولة، فأحسست بطعم الدم يخضّب أسناني، ولم يجعلني أحافظ على سرّ أذني اليسرى، ليصرخ أحدهم:

– أذنه مقطوعة يا شاب!!

فانخرطوا في ضحك هائل، لدرجة أن أحدهم استلقى على طاولة المكتب، ثم صرخ الآخر بين دموع الضحك:

– لا يكون فان جوخ.. هاهاها..

تدافعوا بضحك طويل وغبي، فسأل أحدهم:

– من هذا الفان جورج؟؟

– هاهاها.. فان جوخ يا غبي، هذا هولندي قطع أذنه وأهداها لحبيبته!! انطلقوا في ضحكات جماعية هائلة، اهتزت على أثرها الستائر الخضراء المنسدلة منذ سنوات.

وعلّق أحدهم: تخيّل طراد عنده حبيبة، ولا يفك الشماغ حتى وهو في الفراش!! هاهاهاها!!

***

www.ibtesama.com

لمح بغتة امرأة شابة تحاول بصعوبة أن تجرّ وراءها حقيبة ضخمة على بلاط صالة السفر، فهبّ مسرعاً، مثل بدوي شهم، لمساعدتها، وحين لامست يده يدها الممسكة بمقبض الحقيبة، نهرته بقسوة، فقال لها: أردت مساعدتك!! سألته المرأة بغضب: وهل تعرفني؟؟ أجاب ببلاهة معتادة: لا.. لا أعرفك، ولكنني.. قاطعته: اذهب وساعد نفسك قبل أن تساعد غيرك!! انسحب مكسوراً وقد ألقى نظرة على بعض المسافرين المتناثرين في المقاعد القليلة في الصالة، وكانوا يقيسون شكله بنظراتهم، ويتفحّصون ملابسه الرثّة، وشماغه المعقود مثل القدر على وجهه. كان يهمس في داخله: أيضاً هذه المرأة جاءت تكمل الناقص! لن اتجه إلى مقعدي، سأذهب فوراً إلى مكتب التذاكر، وإن سألني الموظّف إلى أين، أقول له إلى جهنم!!

www.ibtesama.com

١٧

سـرّ الغنـاء الحزيـن

بدأت الصالة تدخل طائعة في العتمة والهدأة، بعد أن تخفّفت من أرتال المسافرين الذين تقاطروا على بوابة الحافلة الذاهبة قبل دقائق، رغم ذاك، كان ثّمة مسافرون جدد تقاطروا من البوابة الرئيسية، بينما آخرون اتخذوا مقاعد في الصالة منذ وقت مبكّر، فوضعوا رؤوسهم على حقائبهم وغطّوا في نوم عميق وحالم.

توقّف طراد وسط الصالة، وهو يحاول أن يستعرض أسماء المدن المتتالية، وأرقام الرحلات في لوحة إلكترونية ضخمة، لكنه لم يجد جهنم في اللوحة، وبدأت أنفاسه تهدأ، وخطوته تثقل، هاجساً بأن جهنم تلاحقه وتحاصره أينما اتّجه: هل هناك جحيم أكثر من هذا يا طراد!! وهل ستبقى مطارداً أينما كنت؟؟ مال بجذعه المنحني تجاه مقعده السابق، ليجد فيه رجلاً عجوزاً بجواره طفلة في الثامنة تحضن بيديها قارورة كوكا كولا، وقد

www.ibtesama.com

نزعت حذاءيها وجوربيها الأبيضين، ووضعتهما على الطاولة بجوار كأس الشاي الذي تركه طراد منذ لحظات وما أن رآه العجوز حتى تململ من مقعده فيما يشبه الاعتذار، ليعاجله طراد بإشارة من يده بأن يبقى في مكانه، فهو لم يعد بحاجة إلى الجلوس هنا. التقط كأس الشاي البارد، وهمّ بالانصراف لولا أن دعاه الرجل العجوز، فاستدار نحوه، ليلوّح له العجوز بملف أخضر، لم ينتبه له لحظة جلوسه قبل قليل: نسيتَ ملفّك!! تناوله طراد مدارياً اضطراباً تأرجح بين عينيه الجاحظتين قليلاً، دون أن يحرج العجوز بأن ينفي علاقته بالملفّ، أخذه بامتنان كما فعل من قبل مع كأس الشاي الذي وجده أمامه متروكاً ومهملاً. ربما كان صاحب كأس الشاي يقرأ فيه قبل إعلان الرحلة، فقام مسرعاً حتى يحجز لنفسه مقعد النافذة، فنسي الكأس والملفّ، فكّر طراد وقال لنفسه، قد يقطع الوقت الممل والطويل في ليل الحافلة.

على الرصيف المبتل بمطر خفيف خارج صالة محطة الحافلات وقف متأملاً السماء التي بدت قريبة جداً، إلى درجة جعلته يلوّح بيده، كأنما سيلمس تضاريس السماء الداكنة، هل كلما اقتربت السماء من أحد، عنى ذلك أن نهايته اقتربت، وأن غيمة تشبه الراحلة ستصعد به؟ مرّ بجواره بغتة شابان بحقيبتي سفر معلّقتين على كتفيهما وهما يضحكان بصخب، جعله يلتفت فوراً نحوهما وقد تجاوزاه دون أن يكترثا له. وضع الملف الأخضر تحت إبطه، وتأكد بيده الطّليقة من أن شماغه يلفّ وجهه جيداً. شعر بسخط شديد من هؤلاء الذين يفرطون في الضحك، وقد تذكّر الموظفين الذين أفرطوا في إهانته في الوزارة: اللعنة، ماذا سأفعل بهذه الأذن المقطوعة، وأنا مهما ارتحلت وابتعدت سأعرف بشراً، وسيكتشفون أمري، حتى لو لففت هذا الشماغ على وجهي؟!

www.ibtesama.com

لفتت انتباهه لوحة نيون تضيء قبالة بوابة المحطة، اجتاز الشارع نحو محل بوفيه صغير يقبع تحت اللوحة التي تومض، وطلب شاورما دجاج دون مخللات، وبينما كان معلم الشاورما التركي يسنّ سكّينه الطويلة ظلّ طراد يحدّق في أذنه النظيفة، المرسومة بعناية، والحمراء بفعل الضوء وحرارة النار، كان المعلم التركي يتمايل مزهواً بأذنه الجميلة وهو يقطّع شرائح الدجاج الناضجة من كتلة لحم الدجاج المخروطية الضخمة، ثمّ يجمّعها بالملعقة بعد أن يخلطها بشرائح البطاطس، قبل أن يدهن الرغيف بالمايونيز. كانت أذنه المواجهة تضيء مع كل اهتزازة بفعل مصباح الهالوجين القوي، والمركّز فوق رأسه وكتلة الدجاج المخروطية. لم يكفّ التركي عن الغناء الحزين بلغة لا يفهمها طراد الذي أمعن في تأمل هذه الأذن اليسرى الفاتنة، وهو يتساءل عن سرّ هذا الغناء الحزين، هل يمكن لمن لديه مثل هذه الأذن الكاملة والرائعة أن يحزن؟ لماذا؟ ألا يكفيه أن يمشي مرفوعاً ومحسور الرأس، دون الحاجة لأن يخفي وجهه بشماغ أو غترة أو كوفية؟ ولا أحد يجرؤ أن يتهكّم أو يسخر منه، صحيح أن هناك بعض الصلع على جانبي رأسه، لكن الصلع من مزايا الرجال الناضجين، حتى أن كل من هم في الأربعينات أو حتى في الثلاثينات يهاجمهم صلع لا تجد النساء فيه نقصاً أو عيباً!! لكن من الذي يعاني من أذن مقطوعة في العالم سواي؟ صحيح أنني أبرّر لكل من كشف أمر هذه الأذن اللعينة بأنها بسبب تشوّه خلقي عند الولادة، وصحيح أن البعض طمأنوني بأن في العالم آخرين غيري بآذان مقطوعة، بسبب تشوّهات خلقية، أو هم من مشوّهي الحروب، ولكن ممّ فقدت أذنك يا طراد، آه، ليتك دخلت حرباً شجاعة وطار معها، ليس أذنك فحسب، بل رأسك أيضاً!!

www.ibtesama.com

تناول الشاورما الملفوفة بورق شفّاف، ودفع للتركي ثلاثة ريالات تعرّقت داخل كفه، وقف على الرصيف عند زاوية البوفيه، حيث لا أماكن ولا طاولات داخل البوفيه أو خارجه نتيجة ضيق المكان الذي لم يتسع سوى لشوّاية الشاورما، ومصطبة صغيرة اصطفّت عليها صواني البيض المقلي والكبدة والكلاوي والفلافل المقليّة بالزيت خلف زجاج لا يمنع الذباب من أن يتجوّل بحرية في أرجاء المكان، وأن يحطّ بصلافة فوق أذن التركي الحمراء المضيئة، مما يجعله يهشّها بين كل فينة وأخرى بذراعه العاري حيث يقبض بكفّه على السكّين المسنونة.

بينما كان طراد ينزع رأس الورق الشفّاف للشاورما، ضجّت سيارات شرطة نائحة في الشارع وهي تمرق أمامه مسرعة تصفع بضوئها الأزرق الفادح ضفتي الشارع ووجه طراد وأذن معلّم الشاورما التركي، مما جعل طراد يقضم رأس الشاورما وهو يشتم: من يطارد هؤلاء المجانين؟ هل سيقبضون على لصّ مثلاً، ثم ماذا؟ هل سيقطفون أذنه كما تُقطف الوردة، أم سيقطعون يده التي سرق بها؟ أم سيزجّون به في زنزانة لا يصل إليها الماء ولا الهواء ولا الناس؟

وقد تضمّخ شاربه الكثيف برائحة المايونيز بعد قضمتين من الشاورما، راح يمسحه بظاهر كفّه، وعيناه تلاحقان سكّين المعلّم التركي، وهي تتطوح في الهواء مثل سيف فارس صلد وشجاع، مما جعله يفكّر لو التقط هذه السكين وجزّ بها أذن التركي المتغطرس، ولكن ماذا سأفعل بها؟ هل سأزرعها مكان أذني المقطوعة، سيكون لديّ ساعتها أذنان، إحداهما سمراء، والأخرى حمراء، يا سلام عليك يا ولد خزنة، هل يحل ذلك

www.ibtesama.com

مأساتك؟ طبعاً لا، لن يحل ذلك شيئاً، ماذا ستفعل إذاً بهذه الأذن الحمراء؟ سأرميها للكلاب أو للذئاب!!

مرّت بجواره قطة سوداء، ثم توقّفت وهي تموء وتحكّ جسدها بساقه، فنزع قطعة دجاج من الشاورما، وكأنما يقطف أذن التركي، ورمى بها إلى القطة السوداء، فالتهمتها وعادت تموء حوله بتواصل حتى انتهى بها الأمر إلى أن أقعت قبالته على الرصيف، وكأنما تضعه أمام الأمر الواقع أن لا فكاك من تحديقها فيه وهو يلتهم الشاورما، رمى إليها ما تبقى في يده ومشى على الرصيف وهو يسبّ قطط هذه المدينة أيضاً، هل تريدني هذه القطة أن أجزّ لها أيضاً أذني الوحيدة، وأرميها لها!! تذكّر الموظفين الذين شبّهوه بفنان هولندي اسمه فان جوخ قطع أذنه وأهداها إلى حبيبته، وأنت يا طراد الكلب ستهدي أذنك الوحيدة طائعاً مختاراً إلى قطة سوداء ضالة.

اجتاز الشارع بغتة دون أن ينتبه فكادت أن تدهسه سيارة مسرعة، وقد علا صوت كوابحها متزامناً مع لغط المنبه الضّاج، متبوعاً بشتائم وبصاق السائق الذي لم يلتفت نحوه طراد، إذ إن كل ما فعله هو أن هرول قليلاً نحو الرصيف، متشبثاً بمعطفه الزيتي العتيق، وشماغه الموثق جيداً حول وجهه، والملف الأخضر وقد تلوّث أسفل ثوبه بفعل رشاش المطر المتطاير من إطارات السيارة تلك.

انعطف إلى داخل صالة المحطة دالفاً بحذائه المغمور بالماء والطمي، وبدلاً من أن يتّجه إلى مكتب التذاكر أو إلى اللوحة المليئة بأسماء المدن وأرقام الرحلات، وجد نفسه يخطو إلى عمق الصالة، قرب دورات المياه، متخذاً مقعداً بعيداً لا يشاركه

www.ibtesama.com

فيه مسافر أو منتظر. استرخى بهدوء رافعاً رأسه إلى سقف الصالة، وقد دوّخه نعاس طارئ بعد أن أحس بالدفء والشبع والطمأنينة. التفت جانباً وهو لم يعدل جذعه من الاسترخاء، فهالته لوحة جدارية ضخمة تحتل ثلثي الجدار المجاور. حاول أن يدخل في تفاصيل اللوحة، في أسفلها خطوط سميكة متماوجة وملوّنة تشبه موجات بحرية أو تلالاً رملية، ولأن ألوانها تتراوح بين البنّي والأصفر الفاتح، والأصفر الغامق والبرتقالي، فهي أقرب لأن تكون تلالاً رملية، وفي عمق اللوحة رأى كائنات مجرّدة يتبع بعضها بعضاً، تشبه جمالاً أو قافلة نوق، تضيء فوقها شمس غاربة بلون البرتقالة. في طرف اللوحة يميناً رجل غير واضح الملامح يمشي معه عصا يجرّها خلفه، كأنما يخط بها على الرمل، وفي أقصى اللوحة يساراً ثلاثة كلاب أو ذئاب، وهي أقرب لأن تكون ذئاباً ترفع خطُمَها تجاه الأفق.

ما أن وقعت عينا طراد على ما يشبه الذئاب حتى أغمضهما تماماً، وهو يهجس، اللعنة، ما الذي جاء بهذه الذئاب، أي فنان أحمق هذا الذي كوّن هذه اللوحة وجعل فيها ذئاباً تعوي، هل سيكون هذا الذي قال عنه هؤلاء الموظفون الحمقى إنه يشبهني، الهولندي فان جوخ؟ لا.. لا، مثل هذا الذي يعيش في هولندا لن يرسم إلاّ أشجاراً وحقولاً وأزهاراً، ما له وما للصحراء والنوق والذئاب. ولكن، هل فعلاً قطع أذنه وأهداها إلى حبيبته، أهداها إلى امرأة، مجرد امرأة؟ يا ألله، هل هناك امرأة تستحق أن يقطع أحدنا عضواً من جسده، ليهديه إليها، خصوصاً الأذن؟ أيها الغبي، يا فان جوخ، تقطع أذنك حبيبتك، أذنك التي تجعلك ترفع رأسك ولا تخجل، تقطعها بإرادتك وترسلها إلى امرأة، لا بد أنك مجنون. صحيح أنني قطعت أذني مثلك، أو أنني فقدتها

www.ibtesama.com

ذات ليل، لكن ليس لأجل امرأة، أبداً، حتى ولو صار لديّ ثلاث آذان، لا واحدة، أو اثنتان مثل بقية البشر، فلن أتبرع بواحدة منها إلى امرأة، أياً كانت هذه المرأة!!

خرجت من حمام النساء المجاور امرأة ممتلئة إلى حدّ ما، مرّت أمامه وقد رمقته بعينيها الظاهرتين من نقابها الأسود، كانت تشبه المرأة التي حاول أن يساعدها قبل أن تطرده وتشتمه، بل إنها هي ذاتها، وقد تأكد من يدها البضّة البيضاء، التي لامستها يده سهواً لحظة حاول أن يضع يده على مقبض حقيبتها الثقيلة. تابعها بنظرات شاردة، لم يكن ذهنه حاضراً وهو يرمي بنظراته صوب عجيزتها الضخمة، بل تراءى له وجه توفيق العبد وهو مغمور بدموع غزيرة لأول مرّة، نادباً زمنه وقدره الذي طوّح به من السودان، حتى ركب البحر لأيام، ظنّ خلالها أنه سيعيش إلى الأبد في البحار.

رأيته أول مرّة في غرفة الشاي والقهوة في الوزارة، ظننته في البدء أبله أو أصم، إذ لم يكن يجيب من يحادثونه أو يمازحونه، فقط كان يلبّي طلبات الموظفين، ويجهّز شاي الصباح وبعد الظهر. لكنه علّمني كيف أعد قهوة بالقرنفل، وشاي النعناع والزنجبيل والقرفة، ثم علّمني كيف أعدّ شاي المرامية الذي يفضّله المدير، كيف أرتّب صينية القهوة والشاي، فأضع مثلاً كأس الشاي على صحن زجاجي شفّاف صغير، على حافته مكعبا سكّر وملعقة ذهبية صغيرة، كيف أحمل الصينية بكفّي اليسرى، بينما يدي اليمنى ترفع الكأس من على الصينية وتضعه على طاولة مكتب المدير، كيف أفهم إشارات المدير وتعابير وجهه إذا كان منهمكاً بالحديث مع ضيوفه. لقد كشف لي العم توفيق، هكذا

www.ibtesama.com

كانوا يدعونه، سرّ المهنة وأصولها، حتى أنه حذّرني من ورطة الانسياق وراء تهكمات الموظفين، أو الانفعال والتماهي مع سخرياتهم ومقالبهم، لأنهم سيجدون فيك تسلية لهم وقت الفراغ، هكذا قال لي، لكنني لم آخذ كلامه على محمل الجد، وتحولت إلى أضحوكة وتسلية لهم، مما اضطرني إلى الفرار، نعم، إنه فرار وهزيمة!!

صامتاً كان العم توفيق، وفي صمته بعض الحكمة، صارماً لا يضحك أبداً، ولا حتى يتسم!! هل يمكن أن يضحك أو يتسم مع أحد، حين يخرج من مبنى الوزارة، هل يبكي حين يكون وحيداً هل يحمل في أعماقه سرّاً لا يبوح به لأحد، كنت أسأل نفسي في الأيام الأولى لمعرفتي به. كنت أتأمل وجهه وهو يعدّ القهوة أو الشاي، له وجه ممتلىء دائري، حافل بنمش قديم، ورغم ذلك له أذنان كاملتان مفلطحتان، تشبهان أذني فيل، يحرص كثيراً على أن ينظّف لحيته من شعيرات بيضاء تنمو كل يومين، شعيرات شاربه يتركها رغم أنه يهذّبها، لتبدو شفتاه الغليظتان جافّتين ومطبقتين إلى الأبد. يضع على رأسه غترة بيضاء تحوّلت إلى لون ضارب إلى الصفرة الكئيبة، تحتها طاقية منقوشة الحوافّ بجنيهات ذهبية، وتستر شعره الفلافل على صدغيه.

www.ibtesama.com

رحلة العذاب الأبدي

قبل ستين سنة، أو أكثر، كنت في قرية أم هباب، وقتها كان عمري ثماني سنوات، القرية كانت تقريباً وسط السودان، ما كان فيها الكثير من القطاطي، كنت أسكن في إحداها مع رجل عجوز وزوجته، بعد أن فقدت أمي بعد هروبها من سيّدها أحمد الحاج أبو بكر، تلك القطاطي أحرقها كلّها الجلاّبة ذات ليلة، أنا هربت ناحية شندي وبربر في الشمال، أما عمي فضل الله آدم وزوجته بخيتة عثمان فقد ساقوهما، كنّا نائمين قبل سماعنا الصراخ، وما أن قفزت من باب القطية حتى رأيت في الطرف قطية إدريس السيد، الرجل الكسيح، وقد التهمتها النيران، وزوجته الصبر زين تحاول أن تسحبه، وهو يصرخ فيها، لم أعرف إن كان يصرخ من النار التي أكلت رأسه وملابسه، أم كان يريدها أن تتركه يحترق. قبل أن أختفي في الأحراش رأيت الصبر زين تدور حول قطيتها المشتعلة، كانت

www.ibtesama.com

الآدمية لهب نار يطوف حول القطية ويصرخ بعد أن اشتعلت النار في شعرها!! تصدّق يا طراد الوقت هذا، بعد ستين سنة أو أكثر، أسمع صراخها قبل أن أنام؟؟

– طيّب هربت إلى أين؟ سأله طراد.

أشار بيده العم توفيق أن اصبر، لحظة أن قام بتثاقل صوب الموقد، وقد غلى الشاي طويلاً، سحب من الرفّ الخشبي كأسين لم تبرح علامة جبن الكرافت سطحهما، غسلهما ثم سكب فيهما تباعاً الشاي، وقد حرص على أن يرفع الإبريق الغضار إلى أعلى، كي يستمتع ببخار يتصاعد من خيط الشاي المسكوب:

أنا يا سيدي رحت في الغابات، كنت أمشي في الليل وسط الأحراش، وأنام في النهار، حتى لا أقع في أيدي الجلاّبة، كانت البلد ملأى بتجار الأوادم، في كل مكان، الكبابيش في منطقة البطانة، التعايشة في كردفان، الرزيقات والمسيرية قرب بحر الغزال، والرشايدة في بور سودان وسواكن، كان الجلاّبة في كل شبر من السودان. المهم أنني بعد أيام وصلت منطقة الحصاحيصا، عشت أكثر من شهر هناك، تعرفّت إلى أناس كثيرين، هوامل وبعضهم موسوم في ظهره أو رقبته، كنّا مثل البهائم نعيش على عشب الأرض وخشاشها، كان الجوع يقطّعنا، إلى أن وقعنا في الفخ!!

– كيف؟

www.ibtesama.com

قام العم توفيق، خطا خطوتين وجذب مصراعي النافذة الخشبية، ثم أوثقهما قائلاً: الدنيا برّدت، ليل الرياض صعب في نوفمبر، المهم كنت تسأل عن الفخ. اسمع يا سيدي، كان الوقت حلو، يعني الجو معتدل مثل الأيام هذي، والهواء لطيف، كنّا مجموعة لا نجد شيئاً نأكله، فجأة نقل لنا الهواء رائحة طيبة، رائحة حلوة، رائحة طبيخ لذيذ، قمنا ومشينا في صفّ متابع باتجاه الرائحة، وكلما نمشي زيادة، تكون رائحة الطبيخ قوية، كانت تدخل في مناخرنا وتدوّخنا، كنّا نتسلّل بين جذوع الأشجار، لدرجة أنه إذا ما اعترض طريقنا دغل أو جذوع وشجر، لا نستدير حوله حتى لا نضلّ عن الرائحة، بل نصعد الدغل وندعك الشوك بأقدامنا الحافية. بعد أن قطعنا مسافة رأينا علي بعد ناراً تحيط بها الأحجار الصغيرة من جهاتها، كان السّفود لا يبين من شدّة الدخان، هذا الدخان العظيم يدفعه الهواء نحونا، فتطيّر رائحته رؤوسنا، كدنا أن نتسابق نحوه، لولا أن أشار أكبرنا وأنضجنا أن نتوقف، قال يمكن أن يكون لجلاّبة أو لتجّار أو ما شابه من رجال مسلحين، قال أحدنا: نرسل واحداً يستكشف الأمر، وإذا اصطادوه فهو واحد ويقدر الباقون على الفرار. قالوا له: اذهب أنت واستطلع! فرفض، ثم اتفقنا أن نهجم جميعاً، فإن لم نجد أحداً، سرقنا الطعام وفررنا، وإن هاجمنا أصحاب الطعام قاومنا معاً!! اندفعنا معاً، واقتربنا من النار وأسياخ الشواء فوقها، توقفنا، لا أحد هناك، وما أوشكنا أن ننال منه، حتى أحاط بنا رجال ملثّمون بعضهم يحمل بنادق، وبعضهم يلفّ حول رقبته حبالاً، وقيوداً، اندفع أحدنا، وهو شاب اسمه بخيت، بين اثنين من رجالهم، كانت بنيته قويّة، دفعهما فتساقطا، وما أن اقترب من الدغل الكثيف، حتى صوّب أحدهم بندقيته، فدوّت رصاصة حتى استقرت في ظهره، ثم سقط على وجهه دونما حراك،

www.ibtesama.com

فوقفنا واجمين، حتى أن بعضنا سقط على ركبتيه من الخوف، فاندفع الذين يحملون الحبال، وبدأوا يقيدوننا من أيدينا، بينما الذين يحملون البنادق بقوا شاهرين بنادقهم نحونا. تخيّل ماذا كانوا قد شكّوا في السّفّود، هؤلاء الملاعين شكّوا قطع شحم في أسياخ الحديد، ووضعوها فوق النار، شفت كيف يا طراد خدعونا، بماذا؟ بشحمة تشويها النار، حتى استكثروا أن يخدعونا بلحمة!!

– طيّب، شفتم الشحمة، فلماذا اندفعتم؟ قاطعه طراد متسائلاً.

أبداً، ما شفنا حاجة، كان الدخان هائلاً، ملأ المكان كلّه، فلا يمكن لأحد أن يرى شيئاً، المهم أن واحداً من الجماعة فك اللثام عن وجهه، فتبينت فيه ملامح رجال الجعليين، كانت عيناه صفراوين، وأنفه مفلطحاً قليلاً مشى بجواره رجل غريب الملامح، عرفت فيما بعد أنه من بدو الجزيرة، تفقّدونا بتمهّل، كان الجعلي يقيسنا بنظراته من الأسفل إلى الأعلى، أما الآدميات فقد كان يلفّ حولهن في دورة كاملة، ثم بدأ يوزّعنا في مجموعات، كنت صبيّاً رشيقاً وسيماً، فوضعني مع ثلاثة صبيان مردان، سمعته يشير نحونا: دول خماسي!!

قاطعه طراد: كيف خماسي؟ أجاب: يعني إذا قاسوه من كعبه إلى شحمة أذنه يطلع طوله خمسة أشبار!!

تفقّد طراد بشكل آلي أذنه اليسرى، فانتبه إليه العم توفيق وتابع: لو ما كان عنده أذن، يقيسوه من الناحية الثانية!! وضحكا معاً طويلاً.

www.ibtesama.com

على فكرة أنا ضروري أعرف حكاية أذنك بعد ما أخلص، المهم بعد ما وزعونا إلى مجموعات ربطوا كل مجموعة ببعضها، وساقونا أمامهم، كان الدليل أمامنا رجلين جعليين، وخلفنا رجال بدو غرباء وبعض أفراد الجعليين، ويحيط بنا من جميع الجهات رجال البنادق، كان هؤلاء الرجال الغرباء تحميهم قبيلة الجعليين من هجمات قطّاع الطرق حتى يضمنوا الوصول إلى سفينتهم بسلام!! أخذونا مسافات طويلة، دخلنا في غابات وأحراش، هبطنا وديااناً وصعدنا مرتفعات، حين نتقاعس في المشي كانوا يلهبوننا بالركل وبالسياط، كانت سياطاً جلدية مجدولة، مشينا لأيام طويلة باتجاه الشرق، حتى صعدنا جبلاً، وأدخلونا في كهف مدخله ضيّق ومظلم، ما لبث أن أصبح واسعاً، كان الكهف هو مخزنهم السرّي الذي جمعوا فيه حوالي ثلاثين رأساً!!

لماذا لم تهرب؟ سأله طراد متحفّزاً، سكب توفيق كأس شاي بدا بارداً من صوته والزبد المتعالي على حوافّ الكأس: كنت سمعت قبل اصطيادي عن ولد حليمة من القطينة بعدما أخذه الجلاّبة إلى الفاشر، قدر يتخلّص منهم خلسة، ويهرب إلى مركز شرطة أم كدادة، وهناك رجّعوه مرة ثانية إلى أمه، لكن هؤلاء كانوا جماعة قليلة، غير مسلّحين وغير منظمين، يعني ما هي حملة. ثم إنك سمعت كيف انقتل بخيت لمّا حاول يهرب.

هزّ طراد رأسه موافقاً، وهو يحتسي كأس الشاي بعينين ساهمتين، بينما لا يكفّ أن يشدّ طرف غترته الأيسر ويحذفه ناحية كتفه اليمنى:

ما علينا، المهم نقلونا ثاني يوم إلى شندي، وتناقص عددنا حين

www.ibtesama.com

صرنا في بربر، اثنان سقطا ميتين في الطريق، أما البقية فلا أعرف أين اختفوا، يمكن باعوهم في سوق شندي حتى يعوّضوا تكلفة الحملة، ويقدروا أن يدفعوا للجعليين الذين وفّروا لهم الحماية أثناء الطريق. خرجنا من بربر مع قطيع أغنام هائل، واتجهنا ناحية سواكن على البحر، في سفينة متوسطة الحجم، وضعونا مع أكياس ذرة وصناديق مختومة في زرائب أو مستودعات سفلية، مظلمة تقريباً، أما الأغنام البرابر فقد كدّسوها على سطح السفينة، تحركت السفينة وهي تبتعد عن ميناء سواكن، وقتها كنّا موسم حجّ، قبل الحج بشهر ونصف تقريباً. بقينا أياماً وليالي طويلة في البحر، كنّا نسمع في بعض الليالي، صوتاً واطئاً، كان صوت الدوريّات الأجنبية وهي ترسل أضواءها المباغتة جهة السفن، كانت تراقب السفن والبواخر في البحر الأحمر، ومجرّد أن يقترب الخواجة بكشّافه المشعل، كي يتفحّص حمولة وبضائع السفينة، تصدمه رائحة روث المواشي على السطح، فيتراجع ويشير رافعاً إبهامه نحو البحّارة، مؤكداً أن كلّ شيء تمام!!

في نهارات البحر الأحمر كان بعض البحّارة ينفض علماً أصفر من شبك علوي في قمرة القيادة، ويتحدّث مع أحد الصبيان الذي يتناول العلم الأصفر منه، ثم يصعد به إلى السارية، يفرده فنكتشف كم هو راية ضخمة جداً، يمكن أن يراها الإنسان من بعد، يوثقه جيداً، ويرفعه بالحبال إلى رأس السفينة، حتى يبدأ العلم يخفق بشدّة محدثاً صوتاً يشبه صوت سوط يهوي على ظهر رقيق، هذا العلم الأصفر يجعل الدوريات البحرية الأجنبية تتحاشى السفينة ولا تستوقفها من أجل التفتيش، إذ يعني العلم الأصفر في عرف البحّارة أن السفينة مصابة بالوباء!!

www.ibtesama.com

بعد أيام قضيناها في الزريبة السفلية في السفينة، نزل إلينا عبر الدرج أربعة رجال، بينهم رجل أسود أظنّه إريترياً، وزّعوا علينا ملابس إحرامات مستعملة ومتّسخة، لم أكن أعرف كيف ألفّ الإزار، أخذني الإريتري إلى الحمّام المجاور، كدّت أتعثّر بحبال مكوّمة وكلاليب، وقد شدّني بعنف من رسغي، وإحراماتي بيدي الأخرى، كان يشتمني بلغة لا أفهمها، وجهه كان غاضباً ومظلماً. وقبل أن يشدّ الإزار، صار يفحص قنيطتي بيده الضخمة، وقد دفعني من مؤخرة عنقي، وقتها أحسست بضَكَره يشبه الهشَاب!! تعرف الهشَاب؟؟

هزّ طراد رأسه على الجانبين، وكأنما لم يفهم شيئاً من لهجته الصعبة، واصل توفيق: ما يهم، الهشَاب نبات صلب، كنّا نطلّع منه الصمغ في كوستي والقضارف، المهم لم أقدر أن أصرخ أو أبكي، كل الذي فعلته تنظّفت بعد ما خلص، وربطت الإزار حولي، وخرجت بعد أن سبقني هو إلى الخارج في الزريبة، ثم صعد سريعاً إلى سطح السفينة، ولم أعد أراه حتى هذه اللحظة.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

٣٣

وثائق رسمية

بعد أن تأمل أسماء المدن المتراصّة في اللوحة الإلكترونية، وجد أنها لا تختلف عن أي شيء عرفه في حياته، إنما مدن متشابهة ومتكرّرة، مثل وجوه مدرّسي المدرسة الليلية التي تعلّم فيها القراءة والكتابة، مثل أشكال السيارات الراقدة في مواقف الوزارة التي كان يقوم بمسحها، مثل وجوه موظفي الوزارة المتكرّرة، من الوزير حتى موظف الأرشيف، مثل عباءات النساء السوداء، مثل الشوارع، مثل الفناجين الصينية المزركشة على رفوف غرفة القهوة في الوزارة، مثل أي شيء في هذا البلد!!

بعد أن انثنى بجذعه المكدود تاركاً اللوحة خلفه، استدار ثانية ونظر إلى أول المدن على رأس اللوحة، قائلاً لنفسه: سأذهب إلى عرعر، أكيد أنها لا تختلف عن جهنم كثيراً، أميز ما فيها أنها في طرف جهنم، خطوة واحدة وأكون في عالم آخر، أنا لا أبحث

www.ibtesama.com

عن الجنّة ولا عن فردوس أو نعيم، أريد فقط مكاناً يحترمني، لا يذلّني ولا يعاملني كالكلاب، هربت من ديرتي بسبب القبيلة، ومن القصر ومن المواقف، ومن الوزارة، وأخيراً أحاول أن أهرب من الجحيم!! قال ذلك ومشى داعياً أن يكفيه الله شرّ جهنم، وأن يقتصر على جهنم واحدة فحسب:

– عرعر، لو سمحت!!

تناول تذكرة واحدة، ودسّها في جيبه العلوي بحرص بعد أن قبض على الملف الأخضر تحت إبطه، واتّجه نحو مقاعد الصالة الخلفيّة، انتقى مقعداً معزولاً، خلفه الزجاج المطل على الشارع، وضع الملفّ الأخضر فوق ركبته، وتأكد من وضع شماغه حول وجهه، تناول الملف، وفتحه من اليمين، وقرأ:

محضر عثور

لقد تم اليوم الجمعة الثالث عشر من محرم لعام ١٣٩٨ هجري تمام الساعة الرابعة فجراً العثور على جنين مشوّه الوجه، عينه مخلوعه، داخل كرتون موز، ملفوف بمهاد قطني أبيض، وذلك قرب مسجد عبد الله بن الزبير في حي السدّ الغربي، وقد قام بالتبليغ المواطن محمد الدّو، واصفاً أنه وجد الجنين مختلطاً بالمشيمة، داخل الكرتون، وقام بنقله إلى منزله المجاور ونظّفه وقطع سرّه، ثم قام بالتبليغ، والله على ما نقول شهيد،،،

وعلى ذلك جرى توقيع الشهود

تأمل طراد اسم الشرطة وشعارها وفرعها على رأس الصفحة

www.ibtesama.com

يميناً، حاول أن يتبين أسماء الشهود المكتوبة بخطّ يدوي متعرج ومتداخل، ثم قلب الصفحة، قرأ العنوان، ثم انتقل إلى وسط الصفحة:

تقرير طبّي

الأعراض: يوجد خلع في الورك الأيسر للجنين، إضافة إلى تشوّه في العين اليمنى ناتج عن خلعها من مكانها، وتهتّك بما يحيط بها أدى إلى جروح عميقة من الدرجة الأولى. كما يعاني الجنين من حالة الصفار والجفاف.

العلاج: يلزم الحالة تنويم لمدة ١٠ أيام، ثم متابعة الحالة بعد الخروج لمدة ٦ شهور.

أخصائي المجمع الطبي المدير المناوب

يقلب طراد الصفحة ببطء، دون أن يتأمل اسم المولود، كان يحدّق في سطر: تشوّه في العين اليمنى ناتج عن خلعها، يا إلهي كيف يتم خلع عين جنين، لا حول له ولا قوّة، لم يبق في سرير تهدهده أمه، وتغني له حتى ينام، سريره كرتون موز، وغرفته شارع مجاور لمسجد ابن الزبير، واسمه لا اسم له، ولا تاريخ ميلاد، ولا أم ولا أب، لا إخوة ولا أخوات، لا أهل ولا بيت ولا بلد. اللعنة على هذا البلد الجحيم، هذا الجنين أيضاً يتربّى معي في الجحيم، بل يعيش معنا أنا وتوفيق، وهذا المجهول. عاد طراد إلى الصفحة الأولى، فحص سنة الميلاد، ثم هجس قليلاً: يعني ٢٠ سنة تقريباً، يا ألله بقي الكثير لكي تخلص أيها المسكين، تموت وتهجر هذا الجحيم الثقيل.

قلّب الصفحات، ثم تأمل إحداها بتمعن:

www.ibtesama.com

محضر تسمية

بعد الاطلاع على كشف أسماء المواليد الذكور المسلسلة، وكشف أسماء الأمهات المسلسلة، سواء في الأصل لدينا، أو في النسخة منه لدى مستشفى المجمع الطبي العيادي، فقد تم التوقف بالنسبة للمواليد الذكور عند الاسم: ناصر عبدالإله حسن عبدالله وبالنسبة لأسماء الأمهات عند الاسم: صالحة عبدالرحمن أحمد. وبناء عليه، فقد تقرر تسمية المولود، ملف رقم: ١٣٩٨/٩٢١ بالاسم المذكور أعلاه: ناصر عبد الإله حسن عبد الله. وتسمية أمه: صالحة عبد الرحمن أحمد.

وعلى ذلك جرى توقيع المحضر،،،،

تخيّل يا طراد الأذن المقطوفة، كما تقطف الثمرة الناضجة، أن لك اسماً افتراضياً، وهمياً، شاءت المصادفة وحدها أن تجعل اسمك طراداً، وليس مطروداً أو مسعوداً، لأن قائمة الأسماء الافتراضية وقفت عند هذا الاسم، فجعلوا لك اسماً افتراضياً، ولأبيك وجدّك ولأمك أسماء متخيّلة، ووضعوا لك حياة متخيلة، تشبه حياة أبطال السينما، أو الروايات الخيالية. حتى الاسم لم يكن مثل أسماء الناس في هذه المدينة الجحيم، يتمدّد اسمي مثل طريق موحش لا آخر له، مثل دهليز مظلم لا ترى فيه شيئاً، حتى ولا يدك، اسم لا يحمل في نهايته ألف لام التعريف اللعينة، مثل العائلات المعروفة في هذي البلاد.. لكنك نكرة لا أب ولا أم معروفان، فكيف يتم تعريفك أيها الحبيب ناصر، وأنت نكرة؟ صحيح أن اسمي طراد، رغم أنني مطرود وصحيح أن اسمي ينتهي باسم قبيلة مشهورة في ضلوع نجد وصحاريها.. وصحيح أنني كنت قاطع طريق محترفاً، قبل أن تُقطع أذني

www.ibtesama.com

اليسرى، وأتمنى أن تساعدني صحتي الآن، لأقطع الطريق وأسرق في النهار، وفي البر الواسع، وليس في الظلام وبين جدران المكاتب والغرف المغلقة!! لكنني في كل الأحوال مثلك تماماً، كلانا ضائعان في هذي المدينة الغريبة!!

كنت أقول لك أيها الحبيب اللقيط ناصر إنني أتمنى أن تُقطع ألف لام التعريف من اسمي، بل أن يقطع اسم القبيلة كله، ويرمى في جهنم، وأن لا أكون مقطوع الأذن. هل تعرف أن أقبح إحساس حينما أشعر أن الجالس بجواري يحدّق ببلاهة في أذني حين أنسى سترها بطرف شماغي؟ اللعنة عليهم، هذه أذني المقطوفة، خذوها أو تبوّلوا عليها، ولتذهبوا عني بعيداً إلى الجحيم!!

قال لنا مدرّس العلوم في مدرسة الإحسان الليليّة إن السمع هو الحاسة الأولى التي تربط المولود بالعالم، أما أنا فقد كان هو الحاسة الوحيدة التي أخرجتني من العالم، بسببها فقدت حيويتي وثقتي بنفسي وأهلي وأصدقائي وجماعتي وعملي.. وكل شيء، كل شيء، يمكن لا أستبعد أن تفقدني حياتي. أنا لا أتذكر أول شيء سمعته في حياتي، في أيامي الأولى، لكنه لن يكون غير صوت أمي، وثغاء الشياه العائدة عند غروب الشمس، وركض الريح وهي تسفّ الرمل أمامها، وتصفق بيتنا.

الفرق بيننا يا ناصر اللقيط الملقوط، أنك فقدت عينك بسبب الأذن، وأنا فقدت أذني بسبب عيني، عيني التي دمعت في ليل صحراوي ساكن، فطارت أذني على إثر تلك الدمعة!! أما أنت فقد طارت عينك بسبب حاسة السمع اللعينة، فلو أن أمك صالحة كما أسموها لم تغوِ أباك عبد الإله كما اقترحوا هذا

www.ibtesama.com

الاسم، وانصاع لصوتها العسلي الناعم، ثم ضاجعها مراراً حتى كنت أنت البذرة، قبل أن تجد نفسك في تالي الليل مرمياً في كرتون موز قرب مسجد ابن الزبير، فقدت على إثره عينك اليمنى، بسبب ربما كلب أو قطة ضالة وجائعة في ليل المدينة، فنهشت عينك دون أن تملك غير الصراخ والبكاء، تماماً كما كنت أنا لم أملك في ليل الصحراء الموحشة غير البكاء وقد طارت أذني اليسرى بسبب دمعة!! آه يا طراد لو حبست هذه الدمعة وحافظت على أذنك في مكانها.

تبليغ عن ولادة

اسم المولود: ناصر نوعه: ذكر حي/ميت: حي
المكان الذي حصلت به الولادة: المجمع الطبي العيادي
تاريخ الولادة بالهجري: ١٣٩٨/٧/١ هـ
تاريخ الولادة بالميلادي: .....
ساعة الولادة: .....
اسم الوالد: عبد الإله حسن عبد الله جنسيته: سعودي
ديانته: مسلم مهنته: موظف
اسم الوالدة: صالحة عبد الرحمن أحمد ديانتها: مسلمة
جنسيتها: سعودية

هل رأيت؟ كم هي غريبة المصادفات!! أنت تفقد عينك وأنا أفقد أذني. أنت لا تعرف أمك وأباك، وأنا لا أعرف بلداً آخر غير هذا الجحيم!! الفارق أنني أخفي زلط أذني المشوّهة، ذات المكان الفارغ بغترتي أو شماغي، أما أنت يا ناصر، أظنّه صعباً أن تخفي عيناً مسروقة!! هناك من يتآمر ضدّنا يا ناصر اللقيط إلى يوم الدين، أنت سرقوا عينك كي لا ترى، وتبقى طول عمرك لا تسأل

www.ibtesama.com

ولا تفكر إلا بعينك كيف تواريها عن الناس، وأنا قطفوا أذني كي لا أسمع، ولأبقى كل العمر ذليلاً مهاناً أواري سوأة أذني.

لا عليك أيها الحبيب، لو رأيتك سأقترح لك حلاّ ذهبياً، أن ترتدي نظارة سوداء، كي لا يرى عينك أحد، حتى عند النوم لا تخلعها.. فأنت ترى الدنيا سوداء في اليقظة، فما المانع أن ترى أيضاً في المنام أحلاماً سوداء!!

لو رأيتك يا ناصر الذي بدون أل التعريف، يا ناصر النكرة والمنكر، سأقصّ عليك حكايات العبد توفيق، الذي يعرف أمه، لكنه غير متأكد من أبيه، يقول كثيرون اشتروا أمه من سوق الرقيق، وأغلبهم ضاجعوها، فلا يُعرف أيٌّ منهم نهشت حيواناته الشرسة بويضة أمه، هل هو سيدها الحاج أحمد أبو بكر الذي هربت منه أخيراً، أم أحد الجلاّبة، أم سمسار البيع، أم أسيادها الآخرون!!

لو تعرف يا ناصر ماذا فقد العم أو العبد توفيق، أنا وأنت، أذن وعين، أما هو.. ضحك طراد بصوت مرتفع قليلاً، فالتفت نحوه أحد المسافرين بجواره، ونظر إليه نظرة خوف ووجل وريبة. صمت طراد وطارت أفكاره محاولاً أن يبدو عاقلاً، ليس أسهل من أن يلتقطه أحد هؤلاء ويرميه في مصحة نفسية، ولن يسأل عنه أحد بعد ذلك، لا أحد يسأل عنه منذ سنوات بعيدة، لقد تحوّل إلى نبتة بريّة وحيدة، تصارع الريح والجفاف والوحدة والوحشة، بل لم يعد حتى مجرد شجيرة شفلّح صغيرة، قد يمرّ بها جمل تائه، فيحرّك بها أضراسه، أو تسعف بدوياً في ليل قارص، فيشعلها ليضجّ جسده بالدفء. لم يعد مفيداً ولا صالحاً لأي شيء في هذا العالم إلا للتندّر. فكّر أن يعمل مهرّجاً عامّاً أو خاصاً!! أن يكون

www.ibtesama.com

في مكان عام ليستجدي الضحكة من النساء والأطفال، فذلك ما لا يتفق مع ناموسه البدوي. أما أن يكون مهرّجاً خاصاً في بلاط، فإن ذلك سيجلب له مالاً وفيراً، سيدفعه كي يعالج انهياره النفسي الذي سيصيبه. وفكّر كيف يمكن أن يفعل مثل هذا وهو الذي ظلّ لسنوات طويلة يحافظ على سرّ أذنه المقطوفة، ويخفيها عن أعين الفضوليين، سواء بشماغه أو بغترته، وقت أن عمل بالوزارة، أو استخدامه للقبعة الشتوية ذات الأذنين الصوفيتين التي كان يستخدمها حتى أوقات الصيف اللاهبة، ليحجب بها أذنه المقطوعة، حين كان يعمل حارساً في بوابة قصر ضخم!!

www.ibtesama.com

عـراك طويـل

أمي خزنة كانت تخصّني برعاية أكثر من أخويّ، كانوا يرونني فارساً شجاعاً، لا أهاب شيئاً، أحب ليل الصحراء وأصادق الذئاب، كنت أمشي على حواف عرق رملي، بينما الذئب يهرول في الجانب البعيد، يلحظني بعينه الذئبية دون أن يفكّر أن يهاجمني، ألحظه بعيني الذئبية دون أن أفكّر أن أقتله أو أؤذيه، لا أملك سلاحاً ولا أحبّ أن أحمله أبداً، سلاحي كان آنذاك قلبي الشجاع، ونظراتي الحادّة مثل صقر يقيس الفرائس، ويديّ اللتين أجندل بهما ما أصيده أو أسرقه في الليل!! لم أكن أسرق ليلاً، لأنني أخاف من الفرسان المسافرين والقوافل، أبداً والله، لكنني لا أحب أن أضطر إلى أن أقتل أحداً دفاعاً عن نفسي أو عن غنيمتي أو كسبي!! نعم إنها كسبي، لأنني كسبتها بذكائي وحيلتي وشجاعتي، وتفوقت على الآخرين الذين يملكونها وهم لا يستحقونها.

www.ibtesama.com

في صغري كنت اصطاد أرنباً برّياً أو أكسب بهيمة، ثم أمزع أعضاءها كما تفعل الذئاب، وأشعل ناراً في سواد الليل الحالك، أشوي ما يسدّ جوعي، وأنهشه بأنيابي الحادّة، بينما أرى في البعد ذئبة تقود أولادها، تروح وتعود، وتراقبني دون أن تقترب منّي، حتى إذا فرغت من عشائي، قمت ومضيت، ودون أن ألتفت أشعر بالذئبة تهرول صوب مكاني، وهي تعوي وخلفها أولادها الأربعة.

تفتقدني أمي خزنة ليوم أو يومين، وحالما تراني تعاتبني على غيابي وحدي في الصحراء، وتعتب عليّ كيف لا أجلب لهم مما أكسبه في البراري، وأبي شيخ كبير، طاعن في السن، شحيح البصر، ولم يعد هناك سوى سيّاف أخي، بعد أن فقدنا أخي الأكبر سيف، الذي خطفته ذات ليلة جنّية لها شعر طويل، ومدعوجة العينين، يقولون أنه خرج ليقضي حاجته في الجوار، ثم عشقته الجنّية وطارت به فوق جناحها، وهناك من قال أن أخي سيف صار من أهل الأرض، حتى إنهم أكدوا أنه صار ملكاً عظيماً في إحدى ممالك الجن. آه يا أخي، ألا ترسل لي من قبائل الجنّ، أو من بنات حرسك امرأة تعشقني وتهيم بي، وتنقلني من هذا الجحيم إلى ملكوت الأرض. قد لا تسمعني يا أخي لكنني أقسم لك أنني أبقى وحيداً في الصحراء، في آخر الليل، أقضي حاجتي أكثر من مرّة في الليلة، وأتلفت حولي باحثاً عن جنّية تعشقني وتطير بي، لكنني لا أرى سوى الذئاب وهي ترعاني في البعد، وتحذرني في نفس الوقت.

ذات ليل، بينما كنت أجثو على ركبتيّ كي أقضي حاجتي، تحركت أغصان شجرة طلح قريبة دفعها الهواء، فارتبكت وقمت

www.ibtesama.com

فزعاً، هل تصدّق أنني الشجاع الذي لا يهاب الموت ولا الرجال، وقف شعر رأسي واهتز جوفي؟ أحسست وقتها أنها ليست شجرة طلح، ولا امرأة شعرها طويل ومدعوجة العينين وضّاحة الخدّ، أبداً كانت أغصان الطلحة مثل شعر جنّية عجوز نهضت من نومها حالاً، وهي تنظر صوبي غاضبة من إنسي تبوّل على رجليها.

بعد أن كبرتُ عرفت أن أخي سيف لم تخطفه جنية فعلاً، بل كانت امرأة جميلة جداً، نسميها ذبّاحة، لأن من يقع تحت نظراتها لا بد أن تسلب عقله وتذبحه، كانت من بنات الصلب الجوّالين، الذين يمرّون بمساكن البدو يرقعون البيوت والملابس، ويجلون دلال القهوة، ويسوفون أباريق الشاي، وييعون المخدات والفرش وغيرها. منذ أن نام سيفٌ أخي على مخدّة من صوف ملوّن غزلتها إحدى بناتهم، حتى مرض ثلاثة أيام، وفي صباح اليوم الرابع لم نجد سيفاً ولا المخدّة التي ينام عليها، انتظره أبي شهوراً، وضعف بصره، لكن سيفاً لم يعد.

ذات ليلة صيف، كنت اتخذت من شجرة عوشز ملاذاً بعد أن مللت انتظار أن ترد قافلة مسافرين أو حجاج، وبعد ليال ثلاث من الترصد، لمحت عن بعد رجلاً يقود بكرة حمراء تتبعها ثلاث شياه، فخفضت رأسي حتى لامست الأرض مثل حيوان البرّ حين يلمح فريسته، أردت أن أحبو لأكمن على طريق عبوره، لكنني تمهّلت بعد أن رأيته ينعطف بالبكرة صوب العوشزة، وما أن تجاوز مكمني بعدّة خطوات حتى تبعته بخفّة، وباغتُّه من الخلف وقد أحكمت ذراعي حول عنقه، محاولاً أن أطرحه، لكنه أمسك بمعصمي بكلتا يديه وجذبني من فوق ظهره، حتى انقلبت عدة مرات أمامه، ثم قفزت واقفاً على قدميّ، متّخذاً هيئة

www.ibtesama.com

المستعد للانقضاض، التقط الرجل عجراه المجدولة وهي تشبه حيّة أو رمحاً، أشهرها نحوي وهزّها طالباً مني أن أبتعد عن طريقه قبل أن يفجّر رأسي بها. رفضت وأنا أطلب منه أن يترك لي البكرة والشياه، فاندفع بعجراه نحو رأسي بضربة سريعة استطعت أن أروغ برأسي عنها، وقد سمعت صوتها يئز فوق رأسي مباشرة. في المرة التالية رفع العجراء إلى الأعلى وهوى بها على رأسي، فأمسكت بها في اللحظة المناسبة، حاول أن ينتزعها من يديّ، وحاولت أن أجذبها منه، لكنه كان قويّاً وصلباً، حاول أن يدفعني بها على صدري، وفعلت مثله، أدارها من الأعلى إلى الأسفل، وقاومته بأن أدرتها تجاه الأعلى، ضربته فجأة بقدمي عند عرقوبه، فسقط وأنا فوقه بعد أن طارت عجراه الطويلة، لكنه استطاع أن يقذفني بقدميه القويتين، فنهضت والتحمت به محاولاً طرحه أرضاً، لكن ساقيه المفتوحتين قد تمكّنتا من الأرض وقد غرس قدميه في التراب، أعدت محاولة أن أحكم ذراعي على عنقه، لكنه خلّص يدي بقوة نادرة. كان قوّياً وصلباً ومحارباً جيداً، لم أقابل أحداً بقوته ومراسه. رغم أن معركتنا استمرت قرابة ساعتين إلا أنه لم يتعب ولم يسأم، حتى أنني شعرت أن قواي وهنت وهو يزداد قوة. لم أكن أرى وجهه جيداً في الظلام، لكن عينيه لامعتان تشبهان عيني ضبع، وشعره طويل ومربوط، وشارباه لم يحفّهما منذ زمن حتى صار فمه مثلثاً مثل نمر بريّ. بعد هذا العراك الطويل، وفي إحدى لحظات الانفصال القليلة، سألته أن نستريح، فأجابني إلى ذلك. قلت له : هل تصالح؟ أجاب: أصالح، وعليك أمان الله!! سألته وأنا أضع يدي في يده: هل تثق بقاطع طريق؟ ضحك وأنفاسه لاهثة : أنا أيضاً قاطع طريق!! هذي البكرة والشياه كسبي اليوم!! عانقني وهو يقول: أنت ستكون أخي!! وقال لي أيضا بأنه لم ينازل أحداً

www.ibtesama.com

بقوتي ومراسي في القتال!! وقال أيضاً بأننا سنكون معاً قوة لا تقهر، وسنكسب الكثير من الغنائم!! في تلك الليلة أكرمني مثل رفيق قديم بأن ذبحنا إحدى الشياه وأشعلنا من حطب الغضا ناراً، بعد أن أوقدها بأعواد رمث قليلة كانت فوق بكرته الحمراء!! قال إن اسمه نهار!! أذكر أنني ضحكت وأضحكته حين قلت له إنه نهار لا يسلب ولا يعترض طريقاً إلا في الليل.

صرنا أنا ونهار معاً كل الأيام، لقد آنسني وآنسته، وتخفّفنا من صحبة الذئاب، فلم تعد الذئاب تترصدنا من بعيد، بل إنها ما أن ترانا حتى تهرول مبتعدة، ولم نعد نترك لها شيئاً لتأكله، كنت آخذ ما أكسبه إلى أمي وأبي وأخي، بعد أن أقتسم الكسب مع رفيقي نهار.

بعد أن عدت من جولات طويلة مع نهار في الأودية والشعاب، وجدت أمي خزنة تندب وتلطم، وتنكش شعرها الأبيض، وتشقّ جيبها، وما أن رأتني مقبلاً أقود فاطراً شقحاء في الظلام، حتى اندفعت نحوي تركض، تضمّني وتبكي. قالت لي إن أخي سيّافاً حمل أبي في الليل في خرج صوف، وغدا به صوب الجبال، وتركه هناك للسباع والذياب.

لم يكن سهلاً أن يحمل أباه ويتركه للسباع تمزّق جسده وهو لا يستطيع أن يدافع ولا أن يدفع أذاها ولا أن يهرب لسقمه وضعف بصره. كان سياف يضحك من عجوز مجنونة، أبدل اسمها تهكماً من خزنة إلى خرفة، فهي الآن في عمر الخرف، وأبي – يقول سيّاف – خرج ليلاً بعد أن تمكن منه الحزن والهم، ليبحث عن أخي سيف، يقول إنه سيجده وسيعيده سواء كان عند الجن أو كان

www.ibtesama.com

ملكاً في مملكتهم، أو مسحوراً بعشق امرأة شعرها طويل ومدعوجة العينين. سمعته في آخر الليل يقول لنفسه: سأجزّ شعرها وأفتل منه قيداً أربط فيه الخبل سيفاً قبل أن أوثقه على ظهر الهرش.

لم يكن طراد لحظة ذاك متأكداً من رواية أخيه سيّاف، ولم يكن أيضاً واثقاً من كلام خزنة أمه!! يمكن أن يفعلها سيّاف وهو الذي يعرف عنه حدّة المزاج والعصبية، وهو الذي يشعر بالضياع والإهمال، بعد أن أصبح سيف أخوه زاد أمه وأبيه وهاجسهم في الليل والنهار!! لا يكفّان عن اللهج باسمه، إن تعرضوا إلى مجاعة أو قلة زاد أو سطو بكيا من الجزع: أين أنت يا سيف؟ كما أن طراد هو أملهما في العيش، إذ يعرف عنه الشجاعة والكرم والقوة حتى وإن كان قاطع طريق!!

بقيت العجوز البدوية خزنة تخزن أسرار البرّ والقبائل، وتبكي ابنها الذي سرقته الجنّية ونصّبته ملكاً للجن، وزوجها الذي تآمر ابنها عليه ووضعه زاداً لسباع البرّ، وصغيرها الذي لا يكف عن مهاجمة القوافل والمسافرين وعابري طرق الصحراء، يسلب ويقطع الطريق ويلهو مع رفيق عمره نهاراً، ثم يعود إلى العجوز التي تنتظره وحيدة ومتآكلة الجذع فوق تلة، وكأنها ذئبة أخرجها الجوع، أو خلوج تنظر في الأفق بحثاً عن صغيرها الشارد أو المسروق.

كانت لا تكفّ عن حفر الرمل، تنكش الرمل ليالي طويلة، وهي تعوي وتدمدم غاضبة، تحفر في الرمل بحثاً عن سيف الذي اختفى في مملكة تحت الأرض، تحفر علّها تجد عظام الأب الزوج الذي انهالت عليه كواسر وسباع البرّ. كانت منذ خيط الفجر الأول تحفر الأرض دونما كلل، وكلّما تحسست أصابعها الجافّة جذع

www.ibtesama.com

شـجيـرة الـغضـا الـمدفون بالرمل أو عـرق شـجيـرة الأرطى قالت لنفسها هذا عظم ساقك يا بو سيف!! لكنها ما أن تخرج الجذع أو العرق حتى تدخل في نوبة حزن وضيق وصمت.

أكثر مرة طاش صوابها بعد أن حفرت ليلتين كاملتين حتى عثرت على عظمة ساق متآكلة لحيوان افترسته ذئاب البرّ منذ سنوات بعيدة، وانطمرت أشلاء عظامه تحت الرمل. التقطت العظمة وصارت تركض في الأنحاء بحثاً عن طراد، تركض وتولول وهي تقبض على فعلة سيّاف القذرة. كانت تركض في كل الاتجاهات، تركض حتى تسقط من التعب والإنهاك، ثم تتحامل على ضعفها وتركض في ناحية أخرى.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

جسد ناضج كثمرة

لم يكن لديه سوى سيارته التويوتا كريسيدا، موديل ٧٦م التي يقتحم بها الشوارع المضاءة والمحفوفة بالأشجار، كان لونها أبيض قبل أن يدهنها بالأصفر، ويثبّت فوق مقصورتها علامة الأجرة، ويرتاد بها الأسواق ومواقف صالة المطار القديم، ينقل بها الغرباء والنساء والأطفال والشباب في كل وقت، منذ الصباح الباكر حتى منتصف الليل، ويمتد به التجوال إلى خيوط الفجر الأولى أيام العطل الأسبوعية.

سيارته بمصابيحها الدائرية المدبّبة، وهي تجوس في طرقات الحارات القديمة تشبه خفّاشاً يتلمّس طريقه ويصطدم بالجدران. يحب سيارته كثيراً، يرعاها ويجمّلها ويحنو عليها، على التابلوه الخلفي وضع مخدّتين مطرّزتين بمرايا دائرية صغيرة جداً، كأنها أقمار صغيرة تكسر ضوء شمس الظهيرة العمودي. على التابلوه

www.ibtesama.com

الأمامي ثبّت قماشاً زيتياً تتدلى من أطرافه أهداب خيوط من اللون ذاته. ومن مرآة السائق المثبّتة على الزجاج الأمامي تتدلّى كرة تنس طاولة مغطاة بأقراص التنتر الملوّنة المثبّتة بدبابيس، حتى أن التماعاتها تبرق كلما تهادت أو تهزهزت سيارة الكريسيدا. على باب السائق الجانبي من الداخل ألصق صورة الفنانة سعاد حسني في لقطة مغرية، بشفتين مفتوحتين، وبشعر معقوص على شكل ذيل فرس، وهي ترفعه بيد وتنظر نحو الكاميرا بدلال، وكلّما نظر إليها لحظات انتظار الراكبين والعابرين شعر أنها تنظر نحوه، ثم تأوه طويلاً وصمت ونظر إلى النساء العابرات في الشارع.

ركبت معه نساء كثيرات، ونقلهن في شوارع المدينة المزدحمة، واختصر الطريق بالدخول إلى طرقات ودهاليز ضيّقة وخالية في الحارات، ولم يفكّر فيهن، رغم أن رائحة عطور بعضهن تدوّخ رأسه، ورغم أن بعضهن يتكلّمن بغنج، ويقمن بحركات موحية ولافتة، لكنه حسم الأمر بأنه يبحث عن المال لا عن إهداره.

ذات عصر صيفي حارّ ودبق، بينما يقف بسيارته الكريسيدا الصفراء في طابور سيارات الأجرة، المقابل لمبنى المحكمة وسط البلد، ركبت امرأة في المقعد الخلفي، قبل أن يصل دوره، إذ بقي أمامه ثلاث سيارات أجرة، التفت نحوها: لم يصل دوري يا خالة!! قالت له بلهجة نزقة، وصوت دقيق وناحل جداً: أنا لست خالة، ثم انني ركبت ولن أنزل!! قال لها باستحياء: ما كنت أقصد، لكن لا أستطيع أن أتحرك إلا بعد أن تتحرك سيارات التاكسي الثلاث!! على اليمين رصيف، ويسار فيه الحاجز!! كان يشير وهو يشرح لها، لكنها باغتته بلهجة هادئة، وصوت يشبه

www.ibtesama.com

قطرات مطر ناعمة: ما يهم، سأنتظر معك!! ثم فتحت نصف زجاج النافذة اليدوية، وهي تتأفف من سطوة الحرّ الشديدة.

بعد أن تهادت سيارته في الشارع خارجاً من ازدحام السوق التجاري، وحدّدت له المكان المقصود، طفرت من روحه أسئلة بدأت تؤرجح بعنف كرة التنس المزيّنة بالتنتر، ما الذي جعلها تتجاوز السيارات الثلاث، وتنتقي سيارتي تحديداً، رغم أن إحدى السيارات أمامي من نوع الكابريس الجديدة، وهي أكثر فخامة من سيارتي الرخيصة، بل يكفي منها مكيّف الهواء الذي يساوي وحده سيارة أخرى في قيظ هذا البلد.

قاطعته وقد تزحزحت إلى المقعد خلفه مباشرة: أووه.. والله حرّ!! ثم طلبت منه أن يتخذ طريقاً أخف ازدحاماً، فالتقط طريقاً جانبياً في أحد الأحياء الجديدة، متجهاً ناحية الغرب، حيث ضوء الشمس الأصفر ينكسر على زجاج السيارة الأمامي، ثم شعر فجأة بحركة خلفه ضاعفها ارتطام ركبتها في ظهر مقعده، نظر في المرآة، فلمح عينيها المرسومتين بعناية، وقد أزاحت غطايتها السوداء عن وجهها لتمسح بمنديل ورقي أبيض قطرات عرق تجمّعت فوق جبينها. نظرت نحو عينيه في المرآة ولم تنكسر عيناها قط، سألته عن اسمه ووظيفته وأشياء سريعة، استجاب لها كما لو كان مخدّراً أو مسحوراً. وقبل أن تغادر سيارته دفعت له بيد بيضاء وبضّة ورقة من فئة الخمسين ريالاً، لكنه أقسم أن لا يأخذ منها شيئاً، أصرّت هي، لكنه امتنع، لتلقي بالورقة في المقعد الجانبي، وتغادر.

نظر إليها وهي تمضي جهة باب منزل حديث، لم يكن منزلاً طينياً

www.ibtesama.com

أو شعبياً، بل كان منزلاً حديثاً تفيض من وراء سوره شجرة الجهنميّة بزهرها الناري، كان جسدها فارعاً، وهي ترفع عباءتها إلى منتصفه، لتضيء من تحتها تنّورة صفراء بورود سوداء وعسلية، وقبل أن تغلق الباب وراءها نظرت نحوه وقد نزعت غطاء رأسها وهي تهزّ شعرها الأسود الداكن على الجانبين مثل فرس محموم. ابتسم وتنهّد قبل أن يضع ناقل السرعة على الرقم واحد، ويدوس على كابح البنزين ببطء، وهو يتأمل المنزل ونافذتيه الأماميتين وأشجاره وأسلاك الكهرباء التي توازي سوره، وما أن انعطف تجاه الشارع العام حتى مدّ يده إلى المقعد الأمامي متحسّساً ورقة الخمسين ريالاً، قرّبها من أنفه ليشمّها، وقد سقطت من وسطها وعلى حضنه ورقة علامة تجارية لأحد الملابس، قلبها إلى ظهرها فهاله أن رأى رقماً هاتفياً، وأسفل منه رقم ١٢ ماء.. قرأها أولاً: ماء، ثم قال لنفسه ربما مساء، وليست ماء، فقد أهملت كتابة سنن السين، لم يكن في المنزل المتواضع الذي يعيش فيه مع زميل عمل خط هاتفي، وأين يجد هاتفاً بعد منتصف الليل؟ قرّر أن يزور صديقاً قديماً، لديه شقة في وسط البلد وفيها هاتف، كان صوتها ليلاً هائلاً وأكثر دفئاً وحناناً، كانت صغيرة ومطلّقة، تعيش مع أبوين عجوزين، أحدهما مقعد فتتولى العناية به. قالت إنها أحبته منذ الوهلة الأولى، وقالت له كلاماً كثيراً:

> ما أنهيت مشترياتي ذاك اليوم، كنت متجهة بسرعة إلى محل بيع ملابس جاهزة أريد استبدال بلوزة حمراء فضفاضة، ما صارت على مقاسي، كنت أنوي أرجّعها قبل أذان المغرب، وقبل ما تقفل المحلات، لكنني مررت بموقف التكاسي، ولمحتك تلعب بشاربك، فأحسست بشيء داخلي، شيء تكهرب، ثم رجعت بعد

www.ibtesama.com

ما تجاوزت سيارتك بخطوات وركبت.. يمكن تقول إني جريئة، لكن والله أول مرة تصير لي، شيء غصب عنّي رجّعني.. ما صرت أتحكّم بتصرفاتي.

قالت له كلاماً ليلياً ساخناً وجامحاً، انساق معها دون أن يشعر بما حوله، تحوّل إلى شقة زميله، وصار يسهر حتى وجه الفجر، أحبّها كثيراً وأحبته بجنون، لم يعد يهتم بسيارته ولا يجمّلها، صار يجمّل وجهه ويعتني بملابسه، ويسهر على صوتها المنخفض الذي يغسل به وحدته وكآبة الليل. أول مرّة قابلها بعد اتفاق هاتفي، ركبت من أمام مكتبة الفرزدق في الشارع العمومي القريب من منزلها، واتخذت مكانها في المقعد الخلفي كما لو كانت مع سائق أجرة، بعد أن تحركت سيارته في الشارع قليلاً طلبت أن ينعطف داخل شارع فرعي، وما أن لاذت سيارته الصغيرة حتى أشارت له بأن يقف. توقّف، فنزلت وركبت بجواره وهي تمدّ يدها البيضاء الرقيقة لتصافحه، غاصت يدها داخل ضخامة يده، وداری ارتباكه بأن سألها كيف يملك أن يمشي في الشوارع وهي بجواره؟ قالت له إنني زوجتك، هل يمكن أن تركب زوجة صاحب الأجرة في الخلف كأنها امرأة أجنبية؟ أعجبه كلامها ومنطقها وليونة يدها الممتلئة وهي تنام بوداعة داخل يده، ثم تتشابك أصابعها الرفيعة ذات الأظافر المصبوغة بالأحمر بأصابعه.. حتى أنه يتذكّر الشارع الفرعي الخالي الذي رفع فيه يدها إلى شفتيه وقبّلها، يتذكّر المنازل التي تحفّه من جهة، وسور المدرسة الذي يحفّه من الجهة الأخرى.

يتذكّر أغنية «يا صاح أنا قلبي من الحب مجروح» التي غنّاها محمد عبده وهي تناوله أول قبلة في حياته، بعدها أحس أن البلد

www.ibtesama.com

اختلف، بدأ يرى أشياء كثيرة في طريقه، يرى البنات في الشوارع، ويطالع في الأشجار، ويتأمل لوحات النيون، ويمازح باعة المحلات التجارية، ويقرأ الجرائد، ويشتري المجلات الملونة، ويبحث عن كتب الشعر الشعبي، ويتابع جديد الأغنيات ويتفهّم كلماتها، دون أن يتمايل مع ألحانها فحسب كما كان سابقاً.

بعد أن غرقا معاً في بحر غرام لا قاع له، وبعد أن تجوّلا في الشوارع والطرقات والحارات، وهي تضع طرحتها وغطايتها السوداء على رأسها ووجهها في الشوارع العامة، وتزيحها إذا دلفا مثل لصّين أو خفّاشين ليليين في دروب فرعية خالية، لتنهب منه قبلة، رغم أنها حاولت أن تفعلها في شارع عام ومملوء بالمحلات التجارية، بحجّة أنه «فاضي ونحن في آخر الليل»، لكنه صدّها بحذر، رغم أن يدها اليسرى لا تكفّ عن الذهاب إلى مكانها المعتاد.

بعد أن ضجّ جسدها ونضج مثل ثمرة، قادته ذات ليل إلى مكان مهجور على أطراف البلد، وما أن استوت سيارته الأجرة في نهاية طريق ترابي مهجور في أحد الأحياء الجديدة، وأطفأ نور سيارته، حتى اندفعت نحوه وطوّقته، ثم جذبته نحوها في مقعدها، وجعلته يقيس حزنها ووحدتها ووحشتها، كان مثل حيوان برّي صغير، لا يعرف كيف يدلف أبواب الغابة، كان يجرّب بحذر وفضول ورغبة، وهي تفعل معه بصبر وبحنان، تقوده من يده مثل جاهل، وتساعده حتى أدرك غايته، وبلغ المتعة كلها. قالت له ستتزوجني، قال لها سأتزوجك، أحبّها كثيراً، وأدمنت حبّه، واستمتعا مراراً، حتى بكت ذات يوم معه وهي مثل

www.ibtesama.com

عصفور ذبيح. قالت إن ثمرة حبنا تكبر في رحمي، فاضطرب ووعدها أن يحسما الأمر سريعاً، بعد أن يشرح لأهله رغبته بالزواج، ذكر لهم اسم عائلتها، فضحكوا طويلاً، وأكدت له أمه أنها ستبحث له عن عروس مناسبة، لكنه اعترض، قالوا له أنت ابن القبائل، أنت الحرّ ابن الأحرار، تتزوج ممن لا أصل ولا فصل لها، وحين لاحظوا إصراره هدّده أخوه بالقتل، وشهر في وجهه بندقية صيد إن فكّر، مجرّد تفكير، في هذه المرأة الوضيعة.

لم يكن الأب المقعد ينتبه للبطن الذي تكوّر، ولم تكن الأم ببصرها الشحيح تلتفت أو تملك أن ترى البطن الذي كبر، مخفوراً بالقمصان البيتية الواسعة، كان الجنين يرجف بنزق، وقلبها يرجف برعب، كانت تبقى الليل كلّه تنتظر الهاتف اللعين، الذي أدمن الصمت الأبدي، حاولت أن تبحث عن طريق يوصلها إليه، كي يساعدها في هذه الورطة، كي يدفنا هذا السرّ معاً إلى الأبد، لكنه لم يترك أي شيء، لم يترك أثراً، كانت تبكي الليل كله، تلعن التليفون والقبائل وسيارات الأجرة والشوارع والشهوة والحب والسوق والدكاكين والبلوزة الحمراء الفضفاضة وأغنية «يا صاح» والأغاني كلها والقصائد الشعبية.

بعد أن تكوّر بطنها قررت أن تبحث عن صديقة الطفولة، أيام الابتدائي والمتوسط، أن تتصل بها وتبحث معها عن حل سريع وعاجل لهذه الورطة والفضيحة، حتى لو كان هذا الحل هلاكها، وبقاء والديها دونما عائل، كم فكّرت بأن تعبر طريقاً سريعاً كي تدهسها سيارة مسرعة، لا يهم حتى لو كانت سيارة أجرة، تتدلّى من مرآة سائقها كرة تنس مزركشة بأقراص التنتر الصغيرة الملوّنة، «المهم أن أضع حدّاً لهذا الكابوس الطويل».

www.ibtesama.com

ذهبت مع صديقتها في لحظة المخاض إلى امرأة عجوز في حي العدول، الحي الشعبي الفقير، كان سائق العجوز وشريكها في العمليات تلك قد نقلهما من مكان محايد، حدّدتاه له هاتفياً، بعد أن وضعت صبيّاً قمحي البشرة، وضعته العجوز بمشيمته والدم المصاحب داخل كرتون موز معدّ لهذا الغرض، وبداخله كيس نايلون ممزّق، حمله السائق باعتياد بعد أن غطّى الكرتون بقماش ضاف، ومضى بعد منتصف الليل، مخترقاً الشوارع والحارات، حتى إذا دخل حي السدّ الغربي، متجاوزاً مغسلة الملابس المطفأة اللوحة، وتموينات السدّ المركزية، ليصل إلى الساحة المجاورة لمسجد ابن الزبير، أوقف سيارته الماركتو البيضاء في صمت الليل، ونزل منها متلفّتاً في المخارج التي تفضي إلى الساحة، ليفتح الباب الخلفي ساحباً كرتون الموز بغطاء قماش جلال الصلاة العنّابي، ليضعه لصق جدار المسجد، قريباً من الباب الرئيسي للمسجد، ثم يفرّ بسيارته إلى الطرقات الواسعة الخالية قرابة الفجر.

لم يكن طراد يقرأ تلك التفاصيل في الملف الأخضر، وهو في محطة حافلات السفر، كان يقرأ مستندات رسمية، قبل أن يغرق في تخيّلات طويلة متشعبة، انتهى منها بآهة طويلة وعميقة، وهو يهمس في داخله: مسكين أنت أيها الحبيب اللقيط ناصر، هل كان اسم أبيك صاحب سيارة التويوتا الكريسيدا الأجرة عبدالإله، وهل كانت أمك ذات البلوزة الحمراء الواسعة، والتنورة ذات الورود السوداء والعسليّة اسمها صالحة؟ هل كان عليك أن تنام يومك الأول في الشارع، وأن تفقد عينك بهجوم قطط متوحّشة في الليل، وهي تراك مجرّد لحمة حمراء رجراجة؟ لماذا لم تكن داخل بيت حديث تفيض من سوره شجرة جهنّمية

www.ibtesama.com

بزهر ناري؟ لماذا لم تتجوّل في سنواتك الأولى داخل سيارة أجرة تناغي داخلها أباك وأمك؟ اللعنة على آفات القبائل وأعرافها، ماذا وجدت أنا يا صاحبي ناصر من القبيلة؟ لا شيء، كانوا يصفونني بالمخروم، لأنني بلا أذن، بعد أن كانت سمعتي وشجاعتي تسبقني في البراري الموحشة!! هذا أبوك يا لقيطي تركك، وفرّ من حياة أمك لأجل القبيلة، لم يهتز قلبه المحبّ لبكاء أمك التي لم تتبع القبائل، ولم يصغ لانتفاض جسدها الصغير الذي علّمه الحب، وأراه الحياة الجديدة، بعد أن كان فظّاً جلفاً، لا يعرف من العالم غير ابتسامة سعاد حسني وعينيها وشعرها المرفوع كذيل فرس.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

رجولـة مسلوبـة

أنت فقدت أذنك يا زول، لكن المشكل من فقد حياته ومستقبله وسعادته واستقراره. صمت العم توفيق وهو يجلس فوق كرسي حصير مرتفع في «قهوة الأمبراطور» خارج المدينة. سحب نفساً طويلاً من خرطوم الشيشة، بينما طراد ينصت لكركرة الشيشة وكأنما تكركر من أعماقها ساخرة بهما، وبقدرهما معاً.

تعرف أن أيام السفينة كانت أرحم من أيامي الآن، بعد ما ابتعدنا عن سواكن، وبقينا في البحر لأيام، ولبسنا الإحرامات قبل أن نصل الميناء، وحكيت لك حكاية الرجل الإريتري الذي دفعني في الحمام على وجهي، وفعلها. عرفت أن الناس كلهم ممكن يفعلوها بك في اليوم عشرات المرات، بأكثر من طريقة، وبأكثر من معنى!!

www.ibtesama.com

تأوه العم توفيق طويلاً، لكن لم تفرّ من عينه دمعة واحدة، حتى لا تتعثّر فوق جلد وجهه الذي يختلف قليلاً عن جلد تمساح هرم، وكأنما لم يعد ثمّة دموع في بحيرة مآقيه، أو لم يعد ثمّة زمن كافٍ لأن يبكي، كان يثرثر في مساء صيفي متأخر، وقد تخفّف المقهى من مرتاديه، دون أن يقطع انثيال أحزانة تنقّلات عامل المقهى الهندي الذي أسمياه يعقوبَ، وقد وجدا فيه شبهاً كبيراً بحارس مرمى فريق التضامن والمنتخب الوطني.

كان يرى أمامه مثل حلم ضبابي بعيد جداً حركة ميناء قديم لم تكد تبلغه السفن بسبب أن مياه البحر لم تكن عميقة، إذ توقّفت السفينة على بعد أكثر من مئتي متر، ثم تقافز عمّال التفريغ من السنابيك الشراعية وهم يشدّون أوساطهم بأحزمة جلدية أو قماشية، قاذفين، بشجاعة، الماشية عبر سلّم مائل ومسطّح دونما درجات يمتد من سطح السفينة، كانت البهائم تتزحلق من الأعلى مصحوبة بالثغاء، وصناديق مقفلة ومختومة ينقلها عمّال التفريغ، بعضها مملوء بالمصنوعات الجلدية والعقاقير المستوردة من كردفان، وبعضها بالبهارات وحطب الصندل الهندي الذي بيع في سوق شندي، وصناديق أخرى أصغر حجماً، لكنها ثقيلة ومقفلة بإحكام مملوءة بالذهب الإثيوبي المجلوب من سوق شندي. أيضاً كان رقيق نساء وأطفال ورجال بملابس الحج يُساقون في طابور على ظهر السفينة قمر أفريقيا، بعد أن أفرغت، وأُخرج هؤلاء من قاع السفينة، ليتم إنزالهم في السنابيك الشراعية، تتحرك تلك السفن بين الخلجان والشعاب المرجانية بصعوبة، حتى تصل إلى مناطق شديدة الوعورة قرب الساحل، ليتم تفريغ حمولتها تباعاً في مراكب الدهو الشراعية الصغيرة، التي بدأت تسير بهدوء وسلاسة بالغة، حتى شارفت رصيف

www.ibtesama.com

الجمرك القديم، حيث رجال موزعون أحدهم لديه دفتر وفوق رأسه قبّعة سوداء، بدأ عمال تفريغ آخرون ينقلون البضائع من المراكب الشراعية الصغيرة إلى الرصيف، ومنها إلى شاحنات اللوري بصناديقها الخشبية، بعد أن يطوف حولها رجال الجمارك ويتفحّصوها. من المراكب الثلاثة الأخيرة هبط رقيق رجال ونساء وأطفال يلبسون الإحرامات، نظموهم في صفّ طويل، ما لبث أن تفرّق إلى مجموعات صغيرة، هناك في الطرف كان ثلاثة أطفال أعمارهم تتراوح بين الثامنة والحادية عشرة، أحدهم كان اسمه حسن وسيتغير إلى توفيق، سيمضي التوفيق إلى جهة البحر إلى غير رجعة، بينما سيبقى النحس والعذاب يتبعه مثل ظله، إذا مشى سار وراءه كأنما يسوطه، وإذا وقف يلتقط أنفاسه الضائعة وقف النحس لصقه مثل قدر نافذ.

أصوات وجلبة متداخلة، وغناء العمال وهم يهرولون هابطين بظهورهم المحنية حاملين الصناديق والأكياس، من طرف الميناء جاء رجال بأثواب بيض قصيرة وبأحزمة في أوساطهم، وعلى رؤوسهم عمائم حمراء، تفرّقوا بين مجموعات الرقيق، اتجه أحدهم نحو الأطفال السود الثلاثة، نظر نحوهم بعينيه الصغيرتين الحادّتين ولحيته المشذّبة بعناية، وقال لهم بأنه المطوّف، ثم ساقهم أمامه يصحبه رجل آخر سمين بثديين رجراجين، يتعالى لهاثه سريعاً وهو يحاول اللحاق بالأطفال السود والرجل المطوّف. في الخارج كانت السماء صافية وزرقاء، وفي الشارع الترابي وقفت عربتان ضخمتان، إحداهما شاحنة لوري بصندوق خشبي ملوّن، ما أن اقتربوا منها حتى صرخ الرجل ذو الثديين الرجراجين: يا رزق!! فأطل من عمق الصندوق رجل ثلاثيني ضخم، له شاربان متهدّلان، وهو يمدّ

www.ibtesama.com

يده الطويلة لأحد الأطفال، ثم يجذبه ببراعة إلى وسط الصندوق، حتى اكتمل الثلاثة داخل الصندوق.

من بين ألواح الصندوق الملوّنة الجانبية كانت عينا حسن أو توفيق تراقبان الرجل السمين قبل أن يصعد بجوار السائق وهو يدفع للمطوّف قطعتين فضيتين قبل أن ينصرف. تمضي الشاحنة تتهزهز بتثاقل داخل طرقات ضيّقة تحيط بها من الضفّتين منازل عالية منقوشة الجدران، ولها نوافذ خشبية بارزة، ولها رواشن ظاهرة قليلاً إلى الأمام، مشغولة بزخارف مميّزة، أو مغطاة بشرائح خشبية متقاطعة، خلفها نساء يغنين وهن ينشرن ملابس الغسيل، وفي بعضها يتصاعد دخان شيشة لرجل وامرأة يدخّنان وهما يتلصصان على الشارع عبر شقوق الزخارف الخشبية.

بعد أن وصلت الشاحنة نهاية أحد الأزقة في محلة المظلوم، حيث تعلو مئذنة مسجد في الزاوية، انعطفت بعد محاولات مستميتة من سائقها إلى اليمين، لتتوقّف في ساحة صغيرة، ويرى حسن أو توفيق من شقوق الألواح الجانبية أطفالاً يتقافزون خلف الشاحنة وهم يردّدون أهزوجة صعبة. حين نزل الرجل السمين من الشاحنة، ناهراً الصغار، جاء من أحد الرواشن صوت امرأة ممطوط يشبه الموسيقى: يا محمد ويا حسين هيّا بسرعة اجروا هنا!! تراكض الصغار في الأنحاء، وفتح الرجل الضخم الباب الخشبي الخلفي للشاحنة، ودفع الأطفال السود من ظهورهم، فتقافزوا مثل كرات، وسقط الصغير حسن الذي سيصبح توفيق على وجهه، فشمّ رائحة التراب الغريبة، قبل أن ينهض مذعوراً، لاحقاً بالصغيرين عبر زقاق ضيّق ليدخلوا أحد أبواب البنايات

www.ibtesama.com

العالية يتبعهما الرجل السمين بثدييه الرجراجين، والضخم بشاربيه المتهدّلين وذراعيه المشمّرين.

كان المنزل بطبقاته الخمس هائلاً، كان الصغار الثلاثة يتوقّفون كل لحظة مبهورين بالمنزل، ممراته، سلالمه، أرائكه وطنافسه، دهليزه الرحب الذي يفضي إلى الصالة الرئيسية المزيّنة بزخارف خشبية وأثاث ثمين، في الجهة المقابلة من الصالة تظهر السلالم الحجرية في خطين متوازيين يفضيان إلى الطوابق العليا، على يسار الصالة ثمة باب يقود إلى غرفة نوم الخدم وحمّام، وغرفة خدمات بحمّامها أيضاً، وفي الزاوية القصوى يوجد درج للخدم، ضيّق ومظلم إلى حد كبير.

كان الرجل الضخم أبو شوارب – يحكي توفيق – يدفعنا بيديه المشمّرتين، حتى أدخلنا غرفة الخدمات المليئة بالأكياس والصناديق وحاويات الزنك، كانت الغرفة تشبه ممراً ضيّقاً، مزدحمة بالأغراض الزائدة، لا أعرف لماذا وضعونا هناك أول ليلة وأقفلوا علينا الباب بالمزلاج، يمكن لأن غرفة الخدمات هي الغرفة الوحيدة التي ليس لها نوافذ، حتى لا نتمكن من الهرب.

أعطانا الرجل السمين أسماء جديدة، بعد أن سألنا عن أسمائنا قال: لا.. هذه الأسماء لا تصلح – أشار نحوي – أنت اسمك توفيق، وأنت عنبر، وأنت جوهر!! هززنا رؤوسنا موافقين، حدّق في وجه عنبر برهة، رفع وجهه بأطراف أصابعه وهو ينظر إلى ندبة فوق حاجبه الأيسر، كأنها أثر جرح عميق لم يلتئم تماماً، اقترب منه، ورفع بإصبعه جفن عنبر الأيسر وجعل يحدّق في عينه الصفراء، ثم أمسك بشفة عنبر السفلى وشدّها نحو الأسفل،

www.ibtesama.com

ونظر في أسنانه، ثم خبطه مرّتين على ظهره، وبعد أن انصرف أرسل لكل منّا ربع رغيف، التهمناها وأيدينا ترتجف من الجوع. تلك الليلة لم أستطع أن أنام إلاّ قرب الفجر، نمتُ واقفاً لضيق الغرفة، وصحوت على رائحة براز عنبر، بعد أن عاجله البطن وهو يقعي بين كيسين باعد ما بينها، وفعلها مثل كلب ضال.

في اليوم التالي صرت وحدي، بعد أن دخل الرجل السمين وأبو شوارب ومعهما امرأة سوداء، في منتصف العمر تقريباً، وهي تردّد: ما شاء الله.. ما شاء الله على الصبيان، ثم تمسح على رؤوسنا العارية، وتتفحّص ظهورنا وأكتافنا. كانت تلفّ رأسها بشال أحمر، وفي أنفها زمام ذهبي، ومن فمها الواسع، ذي الأسنان الذهبية تفوح رائحة غريبة، عرفت فيما بعد أنها كانت رائحة الديرمان. قالت للرجل السمين: والله طيبين يا عم أبو يحيى!! عرفت اسمه منذ تلك اللحظة. أخذوا جوهراً وعنبراً إلى الحمّام، دخلت معهما المرأة تحمل معها ثوبين نظيفين، وغترتين بيضاوين، ومناشف. أقفلوا الباب عليّ داخل غرفة الخدمات، كنت أظن أن جوهر وعنبر سيبقيان في إحدى الغرف الكثيرة في المنزل، لكنني لم أعد أراهما بعد ذلك.

اسمها أم الخير، كانت مدبّرة ذاك المنزل، لا أعرف أين تقيم، وفي أي طابق من طوابقه الخمسة، لكنها اعتنت بي مثل أمي، حين صحوت من الغيبوبة، آه.. على هذا الزمن، ما نعرف من قاعد يتحكم فيه، ومن قاعد يلخبط في هذا العالم. أذكر ذاك اليوم وكأنه أمس، أذكر وجه الرجل الذي دخل عليّ بنظارتين طبيتين فوق أنفه الغليظ، مربوطتين بخيط أسود خلف أذنيه، كان معه شنطة حديدية، صغيرة وغريبة، حمراء كأنما جاء بها من جهنم، عليها

www.ibtesama.com

نقوش ورسوم لمآذن وقباب وأشجار، حين فتح الشنطة عبر قفل أسود صغير، كانت أم الخير خلفه عند الباب، بعينين حزينتين وهي تقول: لا تخف يا ولدي يا توفيق، هذا الحجّام سيحلق لك رأسك!! في الشنطة عدّة متنوعة، أمواس، وقطن، وشاش أبيض، وقارورة عطر كولونيا، وصابونة أبو عنز، وكبريت، وقمع حديدي... وأشياء كثيرة لا أذكرها، لكنني أذكر يديه المشعرتين وهما تقلّبان أدواته بآلية شديدة. غرس الموس داخل شفرة الحلاقة، وانطلق يجزّ شعري بسرعة، بعد أن نكصت أم الخير إلى داخل أرجاء المنزل. بعد أن تساقط شعري لأول مرة في هذي المدينة الغريبة، مزق الرجل ذو النظّارتين الطبيتين قطعة قطن صغيرة، ثم كوّرها بين أصابعه دون أن ينظر نحوي، وغمسها داخل سائل أصفر، وألصقها في فتحتي أنفي، تسللت رائحة نفّادة وقوية جداً إلى رأسي مباشرة حتى رأيت الجدار يهتز، وبدا وجهه ضبابياً ويدور في فضاء الغرفة، وكأنه عفريت!! بعد ذلك لم أعد أرى أمامي شيئاً، أصبحت مخدّراً ولا أشعر بشيء، رغم أنني أحس أن شيئاً يحدث في الأسفل، بين فخذي، لكنني لم أكن أرى إلا النيل والأحراش والقطاطي وأم كدادة وشندي وأم درمان وبور سودان وسواكن، وأمي وعمّي فضل الله آدم وزوجته بخيتة عثمان، والكسيح إدريس السيد وزوجته الصبر زين، كنت أرى وجوه الجلاّبة واحداً واحداً في البطانة وكردفان وبحر الغزال وبانتيو والفاشر، كنت أرى أمي تغسلني على ضفّة النيل ذات يوم ربيعي، والنساء حولها يغسلن الملابس القليلة، كنت أرى أمي تبتعد، وأنا أربط لوحين من الخشب إلى بعضهما، وأدفعهما إلى ماء النهر، بعد أن أصعد بشقاوة الأطفال فوقهما، وأراني أبحر في النهر جهة الشمال، ثم أراني على اللوحين الخشبيين ذاتهما أبحر وسط أمواج هائجة في عرض البحر الأحمر متجهاً نحو الشرق.

www.ibtesama.com

بعد يومين أو ثلاثة، وربما أكثر، صحوت من الغيبوبة، كنت مطروحاً فوق فراش إسفنجي، ومغطّى بشرشف أزرق مقلّم، بجواري قلّة ماء وقطن ومايكرو كروم. حاولت أن أنهض فعاجلني دوار رهيب سقط على إثره رأسي فوق مخدّة الريش المسحوقة. وخزني في عنقي رأس ريشة كأنه إبرة. رفعت يدي وتحسست مخدة الريش وأنا أحلم بكل هذا الريش. تمنيت أن أغرز هذا الريش في ذراعيّ وأطير، أطير طويلاً، أطير ناحية الغرب حتى أصير فوق النيل. حاولت أن أتحرّك، فشعرت بألم فظيع في مثانتي، وكانت أم الخير، لا أعرف هل هي أم الخير أم أمّ الشر، كانت تدخل بزمامها الذهبي في أنفها، وبابتسامتها النادرة، وهي تردّد: سلامتك يا ولدي توفيق!! وتأخذ قارورة من بين فخذي يتجمّع فيها بولٌ أصفر.

قالت لي أم الخير: ستجد عملاً ممتازاً، ستتمكن من أن تعمل في القصور، ستعرف العزّ، وسترى النعمة، وستكون رجلاً ثرياً!! لكنني لم أصبح ثرياً، فضلاً عن أنني لم أعد رجلاً!!

بعد أيام عرفت أنني صرت مخصياً، وأنني سأستخدم ضَكَري فقط للبول!! تخيّل يا طراد خدعوني هناك بشحمة مشويّة حتى وقعت في فخّ الجلاّبة، وهنا خدعوني بكرة قطن صغيرة غرزوها في أنفي فغبت عن الوعي، في المرة الأولى بعت إنسانيتي برائحة شحمة وصرت عبداً، وفي الثانية بعت رجولتي برائحة قطنة وصرت خصياً!! قاتل الله الرائحة كلها، لو لم أملك أنفاً يا طراد، لو أنني فقدت أنفي مثلما فقدتَ أنت أذنك اليسرى... بمناسبة أذنك اليسرى، أنت لم تقل لي كيف فقدتها؟ من جزّ أذنك بسكين أو بشفرة حلاقة؟

www.ibtesama.com

عـراك مع الحـرس

كنّا أنا ونهار مثل سباع البرّ، نشمّ الطرائد عن بعد، وننقض عليها ببراعة. كنّا نعرف الصحراء مثلما يعرف الواحد منّا كفّه، نعرف خطوطها وعروقها وكثبانها وتلالها ونفدها الرملية وكأننا ننظر في خطوط كفوفنا. نعرف مواقع الرياض والفياض والشعبان والخباري، نستدّل بالرجوم والنجوم، كنّا نسابق الذئاب، ونزاحم الضباع في الكهوف، نختار من الدحول ما نرتاح فيه فنبقى فيه ليلة أو أكثر. صحيح أننا نقطع الطريق على الآمنين، صحيح أننا لصّان، لكن صدّقني يا خوي يا توفيق، إننا لا نقتل أحداً، دون أن نكون أصلاً في خطر، فندافع عن أنفسنا.

لم يكونا، طراد ونهار، يعرفان منازل القوافل ودروبها المعتادة فحسب، بل أوقات مرورها التي تزدهر مع موسم الحج، لتكون غنائمهما أو كسبهما أكبر وأوفر، إذ يكمنان في ظلام الصحراء

www.ibtesama.com

خلف تلّة أو صخرة، أو تحت جذع طلحة ضخمة أو عوسجة، تجاور مرور قافلة الجمال، يشتّتان الليل الأسود بحكايات الصحراء والمعارك والنساء، حتى يشمّ طراد رائحة القافلة التي تتهادى من مسافة أميال عدّة، يقول لصاحبه إنه يشمّ رائحة الإبل والرجال، يلبدان بعد ذلك، وقد احتجبا خلف صخرة ويد أحدهما تمسك بيد الآخر،إذ يتفاهمان بهمز وقرص الأيدي، مجرّد أن يلحظ طراد أن القافلة طويلة ووفيرة المتاع، قليلة الرجال ودونما سلاح، حتى يهمز كفّ نهار مرتين متتاليتين، قاصداً أن أهجم، أما إذا لاحظ أن حرّاس القافلة مدججون بالبنادق فإنه يخز بالإصبع الوسطى بطن كفّ نهار، موحياً له بالموت، فيلبدان في كمينهما حتى تعبر القافلة.

ذات مرة، والليل في أوله، والهلال في الأفق مثل حاجب رقيق لامرأة نائمة، تهادت رائحة الإبل وكأنها قطيع في الصحراء، حتى شارفت الرائحةُ الصخرة، وغزت أنف طراد، فأشار إلى صاحبه أن اصمت، فلبدا مثل صخرتين، وقد شدّا وسطيهما برباطين قماشيين، يرفعان بهما ثوبيهما المهلهلين، لتسهل حركتهما. جهّزا سكينيهما الحادّتين، كي يتسلّلا بخفّة لحظة إغفاءة حرس القافلة، فيقطعان وسط القافلة، يجزّ طراد حبلاً يربط بين راحلتين، ويخرج بجملين عن سير القافلة بعد أن يكون نهار قد جزّ أيضاً بسكينه الحبل الآخر خلف الجملين، وأعاد ربط القافلة ببعضها، دون أن يحسّ بهما أحد من الحرس، ودون أن يدخلا في قتال وهدر دم.

بعد أن اقتربت قافلة الإبل، لم يتناه إلى مسمعيهما صوت غناء حرس القافلة، مما يشير إلى أنهما حتماً دخلا في إغفاءة قصيرة،

www.ibtesama.com

ذلك يضمن نجاحاً أكبر وسهولة في مهمة السطو على القافلة. وقعت عين طراد على ناقة حمراء، تتبعها وضحاء، فهمز كفّ صاحبه وانهمرا يهرولان في ظلمة الصحراء مثل ذئبين حاذقين، تفرّقا، طراد تجاه مقدّمة الناقة الحمراء، ونهار ظل يمشي بحذاء الناقة الوضحاء، منتظراً إشارة صاحبه، فما أن يقطع نهار الحبل بين ناقتين حتى يعطي إشارة لصاحبه، ويمسك بيديه طرفي الحبل حتى ينتهي نهار من المهمة، لحظتذاك يقود الناقتين سريعاً حتى يختفي بهما خلف تلّة يتبعه صاحبه.

للمرّة الأولى في تجاربه يخطىء نهار، يتحوّل بعدها نهاره إلى ليل ثقيل لا كواكب فيه. بعد أن نجح طراد وقطع الحبل من منتصفه، أمسك طرفي الحبل حتى لا تنفرط القافلة فينتبه الحرس، بينما انهمك نهار يقطع الحبل الذي في مؤخرة الناقتين، كان يحاول وهو يمشي مع القافلة، ينزّ العرق من جبينه، والحبل مشدود بين أسنانه ويده اليمنى، بينما يسراه قابضة سكّينها تعالج الحبل. ربما لأنه تأخر قليلاً، ما أن انفرط الحبل حتى شدّ الناقة الخلفية على عجل ليوثق حبلها من مقدّمتها بالأخرى، بعد أن همّ طراد بسحب الناقتين المسروقتين خارج القافلة. كان نهار قد سحب الناقة بقوة، فتداعت نوق القافلة خلفها حائّة الخطى، لينتبه فجأة أحد الحرس في آخر القافلة، وقد هرولت به ناقته، ويصرخ بأعلى صوته: الحنشل!! ممزّقاً هدأة ليل الصحراء وصمته، مربكاً صفاء القافلة، ليتقافز الرجال من على رواحلهم، بينما يحاول طراد الفرار بالناقتين، لكنه بعد أن أحس بالخطر صار يركض وحده تجاه عرق رملي مواز لطريق القوافل، بينما وقع نهار في قبضة الرجال المسافرين بعد أن تكاثروا عليه. أما طراد فقد لحق به أحدهم وقفز على ظهره فأوقعه على الرمل،

www.ibtesama.com

ودخل معه في عراك، استطاع فيه طراد أن يشق ذراع المسافر بسكينه الرهيفة، فانبثق دم حار في ظلام الصحراء. اندفع ثلاثة رجال معاً نحو طراد، حاول أن يطعن أحدهم في جوفه، لكن عجراء ضخمة انهالت على ظهره فسقط أرضاً. حاول أن ينهض، لكن أحدهم، وقد كان ثقيلاً، جثم فوق ظهره، وشدّ يديه ثم أوثقهما جيداً خلف ظهره، وساقه أمامه نحو أمير القافلة، بشعر منكوش، وفم ينزّ منه الدمّ والعرق. نظر أمير القافلة وهو رجل في منتصف العمر، له لحية وخطها البياض، وعينان حادّتان مثل عيني صقر، بحاجبين معقوفين بحدّة، وشاربين طويلين ومبرومين. نظر إليهما من فوق جمل أملح، وهما واقعان على ركبهما، موثقا الأيدي. أناخ جمله، ثم ترجّل، واقترب منهما. حدّق في عيني طراد، انحنى قليلاً حتى وازن وجهه، ثم فجأة بصق بشدّة في وجه طراد، ونهض نحو جمله الأملح.

كنت أغمضت عيني على مضض، وأنا أتمنى أن أبصق في وجه أميرهم حتى يتذوّق طعم مرارة رجال الصحراء، لكنني كنت وقتها جباناً، كنت أحلم أن يعفو عنّا، بصفته أميراً، ومسلحاً ومحاطاً بالرجال، بينما نحن أعزلان وموثقان، ولا نملك من أمرنا شيئاً.

مسح طراد وجهه وقد انتبه بغتة على ضجيج وتزاحم في صالة السفر، قرب كاونتر ركّاب الانتظار، بينما موظف بطاقات السفر، يصعد فوق كرسيّه، صارخاً بصوت عال: يا جماعة هدوء، كلكم «طالعين» على الرحلة، صفّوا في نظام!! وما أن اصطفّوا في نظام، حتى بدأ بعضهم يدخل في وسط الطابور، بينما آخرون يهمزون من وقف داخل الصف بقيمة التذكرة طالبين منهم أن يقطعوا لهم تذكرة، مما جدّد اللغط والفوضى والتزاحم من جديد.

www.ibtesama.com

عاد طراد ثانية يسمع صوت أحد رجال القافلة في الصحراء، وعلى طريق يسمّونه درب الشفلّح، حيث تكثر على جنباته شجيرات الشفلّح بأغصانها الكثيرة المتمدّدة على الأرض، كان الرجل يقف خلفهما يشهر خنجراً لامعاً في الظلام: نذبحهم يا طويل العمر؟. لحظة أن أقام الجمل الأملح جذعه، نظر أمير القافلة من الأعلى نحو عيونهما المتوسلة، وقال: لا.. ما يستاهلون نلوث أيدينا بدمّهم، وحنّا بنيّة حج!. لم يكد يرقص قلب طراد، حتى واصل الأمير كلامه: احفروا لهم في الرمل حفرتين، وارموهم فيها، ادفنوهم حتى رقابهم، لا تتركون إلا رؤوسهم للنفس، حتى ما يؤذون العابرين!! قال ذلك وتحرّك جمله الأملح الضخم نحو القبلة، وبدأ الرجال بالحفر على جانب الدرب، وبعد أن عمّقوا الحفرة، أوقفوا طراداً في جانب، ونهاراً في الجانب الآخر، ثم أهالوا الرمل الثقيل عليهما، حتى طمروهما تماماً إلى رقبتيهما، ومضوا. أحدهم نكص نحوهما، ورفع ثوبه، ثم غمر وجه نهار ببوله، الذي أداره في آخره على وجه طراد، وهو يضحك ويركض لاحقاً بالقافلة.

آخ يا توفيق، أنت غررت بك الرائحة، رائحة الشحم المشوي فوقعت في فخّ الجلاّبة، وباعوك في سوق شندي، ثم غررت بك الرائحة ثانية، بعد أن دوّخت رأسك رائحة المخدر، فسقطت في الغيبوبة، لتستيقظ بعد أن فقدت فحولتك!! أنا أيضاً يا عم توفيق، رائحة الإبل غررت بي، فوقعت في قبضة المسافرين العابرين الحجّاج!! جاءوا بك حاجّاً ثم جزّوا عضوك أو ضَكَرك كما تسميه، ضحك على عقلك الحجّاج، وأنا أيضاً ضحكوا على عقلي وتبوّلوا في وجهي يا عم توفيق.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

طفولة مستباحة

فزع مثل طير بعد إغفاءة قصيرة في صالة المغادرة، أصوات المسافرين حوله تشبه طنين ذباب في ظهيرة قائظة، نظر طراد إلى يديه ووجدهما تقبضان على الملف الأخضر، كطفل يقبض بأصابعه اليقظة إبهام والده داخل زحام شديد، حاول أن ينهض من كرسيّه متحاملاً، مقاوماً خدر رجليه المنمّلتين، لكنه بغتة سقط على مؤخرته، وقد سقط من الملف الأخضر كيس بلاستيكي شفّاف صغير. انحنى بجذعه والتقطه من على أرض الصالة الباردة. قرّبه وتأمل فيه، تحسّسه بأصابعه، شيء قاس وصلب في حجم حب الرمان، شيء رخو وناعم. قرّر عندها أن يفتح الكيس الصغير بعد أن أدار وجهه أكثر من مرّة في الأنحاء. لا أحد يترصد لفتاته.

طفل في الخامسة تتصدّر قميصه الزيتي كلمة إنكليزية، يطلق ضحكة صاخبة، ويرفع بيده سكيناً، أمامه طاولة فوقها قالب

www.ibtesama.com

حلوى مغطّى بدريم ويب أبيض، وبعض ورود حمراء، تحفّها شموع رقيقة جداً، تطاير دخانها الأبيض بعد أن أخمدت توّاً. خلف الطفل تدافع أطفال يصفقون مبتهجين.

تأمل طراد صورة طفل الخامسة، نظر في عينه اليسرى المفقوءة، بينما التمعت عينه الأخرى بفعل فلاش الكاميرا، وهو يشهر السكين بصرخة عالية. قلب الصورة، وقرأ: عيد ميلاد ناصر عبد الإله، خمس سنوات، الدار.

أي عيد، وأي ميلاد أيها السيد النبيل، أيها الناصر، وهل ثمّة احتفال بيوم تشرّدك وضلالك؟ هل تحتفل بيوم مولدك في كرتون موز ملقى في ناصية شارع؟ وأنت لا تملك شيئاً في العراء، ليس سوى عينين صغيرتين ولامعتين ترسلهما نحو السماء المظلمة، تستجدي السماء أن تدفع عنك خشاش الأرض وهوامها ودوابها وناسها، لكنك لم تجد غير الخذلان والخيبة الأبدية. أي عيد تحتفل به وقد هاجمتك قطط شرسة وضالة، لتتعشى بوجبة عينك الرجراجة اللامعة، فتطيّر صرخة أبدية في سماء الله، لم تصل إلى السماء، ولم تسمعها أمك ببلوزتها الحمراء، ولا أبوك بسيارته التويوتا الأجرة، لم يسمع استغاثتك الذين أخلدوا إلى نوم ثقيل، ولم تسمعك الأرض كلها، ولا السماء!! لم يكترث لك سوى اهتزازة غصن شجرة الكينا الضخمة وهي تستند بكسل إلى سور جامع عبد الله بن الزبير!! آه يا أشجار الكينا والبنسيان والطلح والسدر لوّحي بأغصانك إلى العالم، كي يراني!!

يحدّق بدهشة طفل الخامسة في حضن امرأة فيليبينية تضع يديها

www.ibtesama.com

مثل سياج حوله وتحاصره بساقيها ضاحكة بمجون تجاه عدسة الكاميرا. في ظهر الصورة قرأ طراد جملة: ناصر عبد الإله مع الخادمة لمباي في الدار.

طفل السادسة يلبس شيّالاً أزرق، بقميص أبيض، وقبّعة صفراء، ويده اليمنى الشقيّة تعانق امرأة سمينة انفرطت ضحكتها وهي تقاوم الصغير. قلب طراد الصورة وقرأ: ناصر عبد الإله مع المربية جمالات في أول يوم دراسي.

مراهق صغير تلصص شاربه، يفرد ذراعيه فوق كتفي مراهقين آخرين، وهم يحيطون أعناقهم جميعاً بثعبان أخضر ومرقّط مصنوع من الصوف ومحشو بالقطن، بينما المراهق في يسار الصورة يرفع إصبعيه الوسطى والسبّابة خلف رأس المراهق في وسط الصورة، مرخياً ضحكة أشبه بالنكاية لزميله، وقد جعله حماراً أو أرنباً بعد أن صنع من إصبعيه رمزاً لأذني حيوان غبي!!

في ظهر الصورة تلك قرأ طراد: ذكريات محمد عبد الله، ناصر عبد الإله، خالد عبد السلام. في عمق الكيس البلاستيكي الصغير دسّ طراد الصور بعد أن تفحّصها جميعاً، فتعثّرت يده بكيس صغير جدّاً، سحبه ببطء فوجد بداخله خصلة شعر أسود وناعم. قرأ الورق اللاصق على الكيس: خصلة شعر من الطفل ناصر عبد الإله عند دخوله المدرسة. سقط من يده كيس آخر فالتقطه وقرأ أيضاً: أول سن خلعت للطفل ناصر في سن السادسة. نظر طراد بابتسامة مواربة نحو سن صغيرة جداً يميل لونها إلى الاصفرار، وفي جذرها تسوّس بنّي.

www.ibtesama.com

لم تعد لديك يا صاحبي ذاكرة إلا ذاكرة أعضائك، ولم تحمل معك شجرة العائلة، وليس لديك منزل جميل، في مقدّمته مجلس للرجال، تصطف على جدرانه أرائك ومخدّات، لتعلّق على صدره لوحة شجرة العائلة داخل برواز ذهبي، كما يفعل أناس هذه البلاد، وكما يفاخرون بسلالاتهم. ليس لك أب غير سنّ مخلوعة، ليس لديك أم سوى خصلات شعر ناعمة، لا إخوة لك ولا أخوات سوى أناس مثلك عابرين ومتوحشين ومأزومين تخلّدهم معك صور التقطتها مربّية مصرية عابرة أخفت عنك في الأماسي وجبة السمك خاصتك، لأنها تحبّها، لتناولك بدلاً منها شطيرة الخبز بالجبن، مبرّرة للأخصائية الاجتماعية أنكم لا تطيقون رائحة الأسماك!!

لم يعد جسدك منتهكاً من الحيوانات الشاردة في طرقات الحارات الرطبة فحسب، بل حتى المربيات لم يكففن عنك أذاهن وشبقهن. لم يكن جسدك بمأمن وهو متاح لهن في طفولتك الغضة. كانت ساعات الاستحمام تطوّق عنقك بالكآبة، والخادمة الفلبينية لمباي تدلك جسدك في مغطس الحمام وتتسلل يدها خلسة بين فخذيك، ثم يتسلل وجهها وفمها، حتى تقشّر جلدك، وأصابه احمرار شديد، جعل الطبيب يتوقّف أمامه بعد أن اشتكى الصغير من الألم، ليصدر قرار الاستغناء عن المذكورة لمباي بعد التحقيق معها، واعترافها بعادتها تلك، مبرّرة أن لديه شيئاً كبيراً يختلف عما لدى الأطفال أو الكبار الفلبينيين.

أنت لديك عضو كبير لم تغفل عنه العاملات الفلبينيات، وجعلنه تسلية لوحدتهن وعزلتهن داخل الدار، والعم توفيق قطفوا عالمه من بين فخذيه، وجعلوا منه مبولة لا أكثر! أنت الذي جئت إلى

www.ibtesama.com

هذا العالم الوحشي بسبب فوضى الطبيعة وشغف الأب الفرضي السيد عبد الإله أو عبد الشيطان لا فرق، يحاولن من حولك أن يكررن المأساة، لتجد أمامك كائناً صغيراً يموء مثل قط، ستهرب أمه من المستشفى وتتركه بين العاملات والممرضات، أو ستضعه قرب باب مسجد وسط كرتون موز أو زيت أو فوط نسائية.. اللعنة يا ناصر بن عبد الإله، أليس هناك من يخلصك ويقطف الثمرة من بين فخذيك ويرميها في صندوق نفايات في محلّة المظلوم أو الظالم أو حي السد الغربي أو الشرقي، حتى تتخلص ممن يتحرّش بك وبطفولتك الغضة المستباحة؟!

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

شهوة القمر

بعد شهور شفيت من جرحي العميق، والرعب الذي اجتاحني آنذاك، ونسيت الحادثة تلك كما نسيت اسمي. أنا الآن توفيق، وفي بلاد غريبة ونائية يفصلها عن بلادي واسمي بحر وغابات ووحوش وتجار وغزاة وسماسرة وسفن وبيوت وطرقات وأحزان طويلة جداً.

هذه البلاد الغريبة ستكون بلادي، وأهلها سيكونون أهلي، سألبس ملابسهم وآكل أكلهم، وسأبقى في خدمتهم إلى أن أموت هكذا فهمت. منذ أن قرّر أبو يحيى، الرجل السمين، أن يعيرني لجارهم العطّار الذي كان له في السوق وسط البلد محل عطارة أخذني إليه مرتين، لأجلب إلى منزله بعض الأعشاب والأدوية لابنته خيرية، التي تمدّدت على فراشها لأربعين يوماً بعد أن وضعت طفلة صغيرة وجميلة جداً.

www.ibtesama.com

خيرية فتاة يافعة بيضاء، صدرها ثمرتان ناضجتان، وعيناها مشقوقتان بنعومة، أصابعها ممشوقة وناحلة تنتهي بأظافر مطلية بالأحمر، كأنما إذا حركتها في ظلام غرفتها أقمار حمراء تضيء خلسة. كانت تحب أمها كثيراً، ولا ترى أباها إلا أمسيات الجمعة، إذ يبقى طوال النهار في محل العطارة، وحين يعود في الليل تكون قد غفت مثل طفلة بعينين لامعتين وذكيتين. يقبّل جبينها ويواري وجهها بشرشف أبيض مشجّر.

لم تكن ابنة العطار جريئة ولا متهورة، لكنها لم تصغ للحوادث والعبر التي يرويها الكبار، لم تلتفت إلى الجنون الذي يمكن أن تجلبه إلى أهلها وبيتها إن هي غامرت في ليلة اكتمال القمر، ونشرت ملابسها الداخلية فوق حبل الغسيل. كانت تظن أن هذه مجرد حكايات يتسلّى بها الكبار في ليالي الصيف المقمرة. لكنها تورّطت فعلاً وقد دعكت ملابسها الداخلية جيداً وسط طشت مغمور بالصابون، ثم عصرتها بيدين بضّتين، وعلقتها بمشابك على حبل الغسيل، في الليلة التي كان فيها القمر مستديراً. قبل أن تغادر ملابسها تأملت استدارة القمر الفضي الرائع، كان يحدّق فيها بجنون، يتأمل مفاتنها واستدارة وركيها البارزين واصطخاب ثدييها داخل قميصها القطني. نظرت نحوه هنيهة دونما اكتراث، لكنها ارتبكت بعد أن لمحته يجوس ماجناً في تفاصيل جسدها. خافت وقد شعرت به يهبط نحو ملابسها الداخلية ويشمّها بضوئه الفضي، مما جعلها تهرب مسرعة إلى الداخل، دون أن تدرك ماذا يمكن أن يفعل القمر المستدير مع سروالها الداخلي المزين بورود حمراء صغيرة، ومع حمّالات صدرها البيضاء.

بعد شهرين بدأت خيرية تشعر بالدوار، ثم لازمها غثيان

www.ibtesama.com

واستفراغ مستمر، حتى لمحت أمها بطنها وقد تكوّر بسرعة لا تخفى عليها، عندها شاعت في الحارة حكاية خيرية والقمر والملابس الداخلية، وبدأت الفتيات الصغيرات يخفين ملابسهن الداخلية ليس عن القمر فحسب، بل حتى عن الضوء، وعن الأعين كلها، أعين القمر والخلق، وحتى الأهل أنفسهم.

بعد أشهر تحولت محلّة المظلوم إلى حكاية تردّدها الحارات كلّها، حتى الميناء القديم، كل أهل البلد والغرباء سمعوا حكاية خيرية بنت العطّار، وبنت القمر التي نسب الناس اسمها إلى أبيها القمر، كانت خديجة الصغيرة بيضاء ومليئة، استدارة وجهها تشبه القمر تماماً.

كان لا بد من خادم لخيرية يلبي طلباتها، بعد أن سقطت أمها مريضة بالقلب. قلبها الصغير كان هشّاً وضعيفاً ورجراجاً لم يكد يسمع حكاية البنت خيرية حتى تضعضع وانهار. أما الأب فلم يعد يخرج لأيام طويلة إلى دكان العطارة وسط البلد.

حين أمرني العم أبو يحيى: ولدي يا توفيق، الناس للناس والجار للجار، وعمّك العطار بحاجة، روح له شوف طلباته! ذهبت وأقمت عند عمّي العطّار، كنت أساعد عمّة خيرية في كل شيء، تمسك بيدي كي تنهض إلى الحمام، وأبقى معها طويلاً في غرفتها في الدور الثاني، بسريرها الخشبي المشغول وشرشفها المقلّم، وجدرانها المدهونة حديثاً، وصورة عمّي العطار في شبابه داخل برواز ذهبي على الجدار المقابل للسرير، بينما على الجدار المقابل للباب تتباهى لوحة المخمل الأسود وعليها سورة الفلق منسوجة بخيوط ذهبية لامعة.

www.ibtesama.com

لم تكن تكترث لوجودي، لدرجة أنها تفتح أزرار صدر قميصها القطني أمامي، وتدلق ثديها الأبيض المكتنز، لتلقم حلمته البنّية في فم الصغيرة، التي تتشبث به بدورها، ثم تبتعد خيرية ببصرها من خلال خشب الروشن المشغول وهي تتبع بهواجسها الضوء الخارجي البعيد.

لم ترتبك لدخولي قط منذ شهرين كاملين من الخدمة مثل ذاك المساء الذي دخلت فيه إلى غرفتها، ووقفت على رأسها دون أن تنتبه لوجودي، وهي تتأمل سارحة صورة بالأبيض والأسود لشاب يلبس غترة نسفها على رأسه، وقد وضع رجلاً فوق الأخرى، وهو يجلس على كرسي حصير عال في قهوة شعبية. نظرت إليّ وقد استشاطت فاتحة عينيها بشدّة، وقد نهرتني بأن لا أفعل ذلك ثانية، وأن أقترب عندها وأتلصّص على أشيائها! ابتعدتُ مضطرباً وخرجت من الغرفة، وبقيت طول اليوم في الممر. في الصباح التالي صوّتت: يا واد يا توفيق، تعال هنا! اقتربت عندها، وكانت عيناها متورمتين وحمراوين، طلبت منّي فيما يشبه الهمس بعد أن همزتني بورقة نقدية بلغت عشرة ريالات أن: ماتجيب سيرة يا توفيق لحكاية الصورة هادي! وأشارت إلى درج الكومودينه لصق السرير. هززت رأسي، لم أفكر آنذاك في علاقة الصورة بالقمر الذي شمّ سروالها الداخلي المزيّن بورود حمراء صغيرة. إنما انطلقت إلى السوق الداخلي بعد أن عرفت طريقه، وتجاوزت دكاكين العطارة والذهب، واشتريت غترة بيضاء نسفتها على رأسي مثل أهل البلد الأصليين.

بعد شهور اطمأنت لي كثيراً العمّة خيرية، وصارت تطلب منّي أن أجلس معها أنادمها، وأضبط لها الشاي الأخضر والشاي بنعناع

www.ibtesama.com

المدينة، كانت تحكي لي طويلاً عن حياتها، ومللها من البيت بأدواره الأربعة الذي يشبه السجن حسب وصفها. تحكي أيضاً عن الكنز الذي وجده أبو يحيى الحلواني. تقول إنه كان يبيع الحلوى على الرصيف. «تصوّر يا توفيق هذا الذي يمتلك الأراضي والعقارات والعمارات كان مجرّد حلواني، لا وحتى ما عنده دكان، يفترش الرصيف في البداية، قبل ما يشتري عربة خشبية بعجلات، ويضع عليها صواني بأغطية زجاجية، مملوءة بالحلوى! يا أللـه يا توفيق، بعد ما كان يهشّ الذباب عن الحلوى، داحيّن يهشوا الخدم عن وجهه الملايين! قال إيه قال كنز!!».

سألت العمّة خيرية عن سرّ الكنز، فقالت: إنت عارف كان فيه ناس قبلنا، يعني كدا من قرون بعيدة، ناس أغنياء مرّة، عندهم ذهب ومجوهرات كثيرة، لمّا خافوا عليها من الغزاة واللصوص اللي كانوا بيهدّدوا بلدهم، راحوا ودفنوا كنوزهم تحت الأرض. وبعد ما اجتاحوا بلدهم وقتلوهم، لم يجد الأعداء شيئاً يستحق، وما عرفوا أن الذهب والكنوز كانت تحت الأرض. هذي الكنوز بقيت سنين طويلة تحت الأرض ما أحد عارف طريقها. بعض الناس أهل البلد لمّا حفروا الأرض ليبنوا منازلهم عثروا على كنوز، مثل أبو يحيى الحلواني.

كان يملك أحد الأحياء الجديدة، قرّر أن يسمّيه مخطط الحلوى، كل ذلك بسبب الكنز الذي وجده داخل أكياس مختومة بختم أقوام وشعوب زائلة. يقال إنه جمع أهل محلّة المظلوم، ورمى بينهم أكياساً ثلاثة، وصندوقاً صدئاً، وقال إنه أراد أن يشهدهم أنه عثر على كنز من كنوز سليمان أو جالوت أو كنوز بني هلال. كنت وأنا صغير فكّرت أن أهرب من العطار ومن أبي يحيى،

www.ibtesama.com

أهرب إلى الصحراء لأبحث عن كنز مغمور في الرمال. كنت صدّقت الحكاية كلها، تماماً مثلما صدّقت أولاً أن القمر ضاجع خيرية وبثق داخل رحمها بذرته، التي تشكّلت طفلة صغيرة طاغية الجمال وتشبه القمر. أليس طبيعياً أن تشبه القمر وهو والدها!! كنت مثل غيري من أهل محلّة المظلوم صدّقت أن القمر اللعين فعلها بعد أن أغواه سروالها الداخلي المعلّق فوق حبل الغسيل، لكنني اكتشفت اللعبة كلّها بعد أن وجدتها تخبىء صورته بالأبيض والأسود وهو ينسّف غترته، مرة تضعها تحت وسادتها ومرة داخل درج الكومودينه، هل كان ذلك الشاب هو القمر؟ وهل كنّا نحن، أنا وجوهر وعنبر والذين اختطفوا قبلنا، والذين سيختطفون بعدنا، هل نحن الكنز؟ الكنز الذي عثر عليه أبو يحيى، الكنز الذي جعله يحرق عربة الحلوى، ودكانه وسط البلد، ويشتري بأثماننا أراضي وعقارات، وينشىء مخططات جديدة في البلد؟

www.ibtesama.com

سجنـاء الرمـال

كان رأسانا، أنا ونهار، مثل حجرين في ليل الصحراء، مثل حجرين أسودين يضيئان بانعكاس نور القمر، اللعنة لهذا القمر الذي وطأ خيرية بنت العطار صاحب دكان العطارة، والذي داس على رأسينا بنوره حتى فضحنا لسباع البرّ، هل ضوؤك يا قمر ما كشف أمرنا في رمل البرّ، أم هي الرائحة؟ تلك الرائحة، رائحة الشواء، التي أوقعتك يا عم توفيق في فخّ الجلاّبة، رائحة المخدّر التي أدخلت طفولتك في الغيبوبة حتى قطفوا عضوك ورجولتك المنتظرة!! تلك الرائحة الزكية، رائحة العطر النسائي الحادّة التي أدارت رأس أبيك يا ناصر اللقيط، وغررت بأمك صالحة حتى وهبته الدفء والرعشة المجنونة في شارع فرعي مظلم!! تلك الرائحة التي أطاحت بخيرية بنت العطار، فضاجعت القمر بعد أن كشفت له سروالها الداخلي المزيّن بورود صغيرة!!

www.ibtesama.com

هل الرائحة الزكية النبيلة الفاتنة، ذات الخيوط الطويلة المتشابكة الدائرية، الشبيهة بخيوط العناكب، هي التي أوقعت هؤلاء كما الذباب؟ هل الرائحة ذاتها التي تشبه طفلاً يقود هؤلاء كالعميان في ظلام الدروب، هي التي قادت الذئاب العمياء في صمت الصحراء، وهي تقطع درب الشفلّح تهرول صوب رائحة العرق والخوف؟ عرق طافح ينزّ من فروة رأسي طراد ونهار، عرق يكشف الرائحة الآدمية، عرق يفضح الفرائس لدى الحيوانات الجائعة الضالة.

وش الحيلة؟ وش الدبرة يا خوي؟ كانت تلك الأسئلة المشروعة لديهما بعد أن خفت وجيب القلب، وهدأت روحاهما ليشعلا جذوة العقل. هل ثمّة حلّ أو سبيل للخلاص؟ ليس هناك ما يضيء في ذهنيهما، وهما مقيّدا اليدين، ومدفونان حتى عنقيهما في ثقل الرمل الأحمر. ذلك الرمل الذي احتضناه طويلاً، أصبح ذاك المساء البعيد سجّاناً، وقد شلّ حركتهما وركضهما الحرّ في البراري.

وقت أن كان طراد وحيداً في الصحراء، صادقته الكائنات كلها. الرمل استحال له فراشاً. الكثيب والتلّ والنفود عرفته جيداً، كما فتحت له الدحول صدورها واحتوته، أسقته الوديان والشعبان وغسلت جسده. عرفته الفياض والخباري. ظللته أشجار الطلح والعوشز والسدر. أدفأته جذوع الغضا والسمر بنارها وجذوتها في ليل الصحراء البارد. حتى الذئاب لم تفكّر أن تهاجمه وهي التي تشاركه الطعام، إذ تهرول قربه ويحذف لها أعضاء من فريسة اصطادها، حتى تبتعد قليلاً وتقف على رأس التلّ تطالع القمر دون أن تعوي على غير عادتها، كأنما كانت تقف تحرسه من عوارض ووحوش وزواحف الصحراء، كأنما تحرسه حتى من البشر.

www.ibtesama.com

بعد أن تعارك مع نهار ساعات طويلة، وأصابهما الكلل، اكتشف كل منهما أنه إنما يصارع فارساً صلداً، ومقاتلاً شجاعاً، وقرّرا أن يصبحا صديقين، يحمي كل منهما الآخر ويدافع عنه، مذّاك بدأ طراد يغير علاقته مع الكائنات النبيلة حوله. سخر من الرمل، وأهان الأودية، وجزّ العواشز والطلح، وقتل الذئاب الجائعة اللاهثة.

تذكّر طراد كل ذلك، كانت الأفكار كالرياح تصطخب بعنف داخل ذاك الرأس النابت من الرمل. الرمل الذي انتقم لكرامته وجثم بثقله فوق جسد طراد، حاصره من كل ناحية حتى لم يستطع حراكاً. شجيرات الشفلّح تتمدد بكبرياء وهي تتثاءب ساخطة على طراد الخائن للشجر وللشعبان وللخباري وللفياض وللذئاب.

كانت شجيرات الشفلّح قادرة على أن تزحف على بطونها نحوه وصديقه، وتغمرهما لتخفي رأسيهما عن الضباع والذئاب والحيّات. كانت الرياح أيضاً قادرة على أن تكفّ عن سوق الرائحة ودفعها إلى الوهاد والجبال ورؤوس التلال. كان الرمل قادراً على أن يخفّف عنهما ويزيح ثقله عن جسديهما المدفونين كي يخرجا ويتحرّرا من سطوته. كانت الذئاب أيضاً قادرة على أن تحميهما وتحرسهما مثلما كانت تفعل من قبل. لكن لا شيء من ذلك حصل، كل الكائنات تخلت عنهما، كلها تآمرت ضدهما، وضد حياتهما.

لو مرّت عبر درب الشفلّح قافلة ما – كانا يفكّران – هل ستنقذهما، أم ستولّي رعباً وهلعاً، وهي ترى رأسين طالعين من الرمل كأنهما حجران، ويستنجدان بهما. سيولون الأدبار جازمين أن هذين من أهل الأرض. أووه لسنا جنّيين أيها

www.ibtesama.com

المسافرون، هيّا أخرجونا من هلاك الرمل، من زحفه الذي يشبه زحف الأفاعي. أنقذونا من الموت جوعاً أو رعباً أو افتراساً.

كانا يهجسـان معاً، وينضح العرق من عنقيهما ووجهيهما في سكون الصحراء، قبل أن يتناهى إلى سمعهما عواء بعيد وطويل. كانت الرياح تهبّ في مساء خريفي وتدفع الرائحة الآدمية إلى كل جهات الصحراء الأربع، بل الخمس جهات، بما فيها السماء التي ستحظى في النهار بالنسور والعقبان.

الرائحة تزحف كأفعى فوق الرمال، والعواء يتأرجح مع الهواء ويقترب شيئاً فشيئاً، فيزداد رعبهما وينضحان مزيداً من العرق، لتمعن الرياح في نقل الرائحة الآدمية إلى أخطام الذئاب السارحة في البراري والوهاد.

في البعيد لمحا ذئباً في الظلام يهرول، ثم يتوقف ويتشمّم بخطمه الأرض. يقف ويمط رأسه عالياً ثم يعوي. مشى نحوهما بعجل. إلى أين يا ذئب؟ وأي معركة ستدخل معهما؟ أي معركة تلك وهي غير متكافئة؟ بين حرّ وطليق بيده الأسلحة كلها، وبفمه الخناجر الرهيفة، وبقوائمه النبال المسنونة، وبين سجناء الرمال، الذين لا يملكون أيديهم ولا أرجلهم ولا قوّتهم، لا عصا ولا عجرا يدفعون بها الأذى والذئاب؟ اللعنة عليك يا سرحان!! أي لؤم تخبئه بين عينيك اللامعتين، وأي نذالة تلك التي تجعلك تصارع أعزلين من كل شيء، إلا من صراخهما.

مرّة انشقت السماء، ولذنا أنا ونهار داخل دحل، كان كبيراً يشبه كهفاً، شممنا رائحة لا نخطئها أبداً، كانت رائحة حيوان البرّ.

www.ibtesama.com

قرّرنا ألاّ نهرب، بل أن ننازعه في سكنه، وأن ننازله نزال الشجعان. اتخذت ركناً عند المدخل، وقابلني في الركن الآخر نهار، الذي يحمل جنبيّة مسنونة يلمع الموت من حافتيها. المكان الذي اتخذته هو ما يسلكه الداخل أولاً. قرّرت أن أهاجم الذئب أولاً بيدين عاريتين، ويعاجله نهار بطعنة من الخلف. كان خوفنا من أن يكون أكثر من ذئب، لكننا وجدنا من الدلائل والإشارات ما يوحي أنه مجرد ذئب وحيد.

حين دخل الذئب كانت تسبقه رائحته وأنفاسه، كان أيضاً متوجّساً، وكأنما شمّ رائحة آدمية. عاجلته بزعقة قوية جداً تردّدت أصداؤها داخل الكهف الصغير، أوثقت خطمه بيديّ، قاومني كي يخلّص نفسه، طوّح بقائمته اليسرى نحو كتفي، وحزّز بمخالبه زندي في خطوط دماء، ليهجم نهار من خلفه وقد شقّ بسرعة البرق خاصرته بالجنبية، حتى انتثرت أمعاؤه وتمدّد، رافعاً قوائمه مثل فطيس.

الآن يا نهار لم تعد الحكاية ذاتها، فيداي اللتان أوثقت بهما خطمه ومستودع خناجره الرهيفة صارتا مغلولتين في بطن الرمل، كذلك يدك الشجاعة التي تشهر الجنبية هي أيضاً مغلولة إلى ظهرك، وموثقة بالحبال، ومدفونة بالرمل!! هل رأيت يا نهار موتاً وهلاكاً أكثر بؤساً من ذلك، أن يتفنّن عدوّك في قتلك، أن يقتلك ببطء شديد، أن يتلذّذ وهو يلتهم وجهك عضواً عضواً، وكل مرّة تصرخ بكل ما تملك من لسان لم يأتِ الدور عليه بعد، كي يلتهمه بشراسة ولؤم.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

رحلة الأحلام الشائكة

كنت حزيناً، وكانت الشمس تسحب عباءتها الصفراء من على أكتاف المنازل في محلّة المظلوم، وقد دفعوني في صندوق سيارة لوري وارد فورد مع أثاث وأغراض منزلية، فرش وبطانيات ومخدّات ملونة الأغطية من قماش الكتّان. التقطت إحداها ووضعتها تحت رأسي في ظلام الطريق البرّي. كانت محشوّة بالريش، وقد شعرت بجذور الريش المسنونة تخمش وجهي. آه لو أضع الريش حول ذراعيّ وأطير، أرتفع قليلاً، شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح طيراً في كبد السماء، أعبر البحر الأحمر، ثم أطوف فوق النيل. أرى النسوة ينتشرن على ضفاف النيل، يغسلن الأواني المعدنية، ويدعكن الملابس ويغنين. أرى الأطفال العراة يتراشقون بماء النهر ويسبحون. أطير، فأرى الغابات والأحراش والأدغال، أرى القطاطي تنتشر في قرى صغيرة متناثرة. أرى الجلاّبة يمتطون خيولاً سريعة ويمسكون بالحراب المسنونة،

www.ibtesama.com

وبعضهم يصوبون البنادق في الأنحاء ويطلقون النار. أرى الجلاّبة يسوقون قطيع العبيد إلى سوق شندي. أرى أمي تهرب في الغابات، وسيدها الحاج أحمد أبا بكر وهو يغتصبها مراراً. كنت أرى الرجل الأريتري يدفعني على وجهي ويدفع ضَكَره في مؤخرتي حتى تكاد تنقطع أنفاسي. أرى بخيتاً وهو يحاول الهرب من الجلاّبة، والرصاصة تئز في هواء الغابات الجاف وتستقر في ظهره. كنت أرى أنني طير في سماء السودان قبل أن يشهر أحد الجلاّبة بندقيته نحوي، وتقصدني رصاصة هائلة وسريعة لم أتمكن من تفاديها، لتبثّ الريش أبيض في الفضاء وهو يتطاير من جسدي قبل أن أسقط جثة هامدة.

كانت سيارة اللوري الفورد تتهزهز في طريق ترابي وعر، متجهة ناحية الشرق، وفي صندوقها الخشبي يغفو توفيق بوداعة طفل لا يعرف أين يسير به القدر!! تصاحبه أحلام وكوابيس مرعبة، وتطوف حوله رائحة الشيشة المنبعثة من المقاهي الشعبية خارج البلد. بعد أيام قليلة كان في مدينة جديدة وغريبة لا يعرفها. استقر في قصر ضخم يختلف كثيراً عن منازل الطوابق ذات الرواشين في محلة المظلوم. كانت المساحات الخضراء والأشجار الوارفة في القصر هي ما لفت نظره في الوهلة الأولى، تلك الحدائق التي تحوّل إلى العمل فيها كبستاني فيما بعد. إذ في سنوات طفولته ومراهقته اشتغل خادماً في القصر، بجانب عدد من الجواري في قصر ذي أجنحة، تخصّص في جناح العمّة مضاوي، مساعداً لجاريتين هما زهرة وأم كلثوم. كانت زهرة أو زهيرة، كما يدعونها دائماً، تكبره بسنوات قليلة، سوداء وناعمة، صدرها ناهض مثل حزن يوشك أن ينثال، شفاهها ممتلئة وناضجة تكاد أن تنفلق مثل تين بلدي، وقد انفلقت فعلاً ذات عصر في مستودع

www.ibtesama.com

الأرزاق في القصر، بعد أن دعت الصغير توفيق ليساعدها في نقل السكّر والشاي والقهوة إلى المطبخ، وفي غمرة الأكياس والصناديق المتراكمة فوق بعضها انهالت على شفتيه، وحرّضته على أن يلتقط تين شفتيها الناضج.

تعلّم كثيراً على يديها، وطمع في المزيد قبل أن يبلغ آخر الخذلان. كان في ذروة العمل في القصر، يمرّ بجوارها وهي منهمكة في ترتيب شراشف السرير، أو في تنظيف الستائر واللوحات الثمينة والتماثيل الرخامية بريش النعام، أو تمسحها بقطعة قماش قطني، فيترك يده حرّة وطليقة كي تمسّ مؤخرتها الضخمة دون أن تكترث به. لكنها نهرته ذات يوم وهي تزعق فيه: يا بتاع البول!! بعد أن اكتشفت أنه خصي ذات مساء، وقد بلغت الذروة منتظرة أن يولجه فيها.

كان في الثالثة عشرة، أصغر منها بأربع سنوات، وقت تلك الحادثة، مذّاك انطوى توفيق على ذاته، وأدمن الصمت طوال سنواته اللاحقة. كم طاف به الفرح على أجنحة من الغبطة بعد أن اقتنعت به العمّة مضاوي لتتخذه سائقاً خاصاً، وليخرج من القصر إلى قصر خاص آخر. وقد تزوّجت عمته مضاوي وعاش معها في قصرها الجديد. كانت تلك أعظم فرصة كي يتخلّص من جرحه ومأساته التي تبلغ ذروتها كلما اصطدمت عيناه بعيني زهيرة.

بعد أن كشفت زهيرة سرّه لرفيقتها أم كلثوم، لم تعد تلك تنسحب منهما، لتترك لهما فرصة الاختلاء ببعضهما. ربما شدّدت زهيرة لرفيقتها بأن لا تجعله يختلي بها. حتى لا تهدر وقتها معه، ولتتفرّغ لحلمها الجديد، وطموحها الباذخ بأن تنجب من سيدها، لتضمن

www.ibtesama.com

الحياة المستقرة والمستقبل المطمئن. من جانبه هو أيضاً صار يتحاشى الالتقاء بها في غرف القصر، بل حتى في الممرات، ينكسر بصره كلما عانقت عيناه عينيها من جديد.

لم يكن يحلم، مجرد حلم، أن يصبح سائقاً خاصاً وذا حظوة لدى عمته. بل ربما لعب القدر لعبته الأخيرة، وقد رمى الورقة الأخيرة في حياة السائق الشخصي السابق أنور عبد النبي، قبل أن يغيّروا اسمه إلى عبد رب النبي، فليس من الجائز والمشاع أن نعبد نبيّاً، إذ المعبود هو الله سبحانه، هكذا علّموه قبل سنوات طويلة من طرده من العمل. كان أنور شاباً ثلاثينياً، له شارب كثّ، ويتقن وضع غترة العطّار الشاهقة البياض فوق رأسه، متوّجة بعقال سميك للغاية. يدير محرّك سيارة الرولز رويس، ويقف عند بابها الخلفي من الناحية الأخرى لمقعد السائق، منتظراً لدقائق قد تبلغ أحياناً الساعة الكاملة، وقد تزيد عن ذلك، وما أن يشمّ شذى عطر نسائي نفّاذ وفاتن، حتى يسارع إلى فتح الباب الخلفي دون أن يلتفت ناحيتها، ثم يقفل الباب وراءها بعد أن تتخذ مقعدها الخلفي، مراعياً أن يلمّ طرف عباءتها السوداء المطرّزة فيما لو ظهر خارج المرتبة الجلدية بلونها السكّري.

كم تسارع أنور عبد رب النبي مع وصيفتيها بثينة وصفيّة، حين ترافقانها، على فتح الباب وإغلاقه لها، إلى أن حسمت هي الأمر، بأن ذلك من مهام أنور وحده، وكان ذلك لحظتها وساماً تفاخر به في أنحاء القصر.

ليس من السهل أن ينسى ذلك المساء المشؤوم، الذي كان بداية النهاية لحياته الوظيفية، إذ جهّز نفسه آنذاك لمشوار رسمي كانت

www.ibtesama.com

تستعد له، تمثل في افتتاح معرض تشكيلي لمجموعة فنانات تشكيليات شابات. في السابعة، وقبل ساعة ونصف من الموعد كان قد أوقف سيارة الرولز رويس العشبي قبالة البوابة الرئيسية. بعد أن طال انتظاره، وتجاوزت الساعة الموعد الرسمي، بأن شارفت التاسعة مساء، أمسك به البطن فجأة، إلى درجة لم يستطع معها الوقوف على قدميه، فركض نحو الحمام الخارجي، لتخرج في اللحظة ذاتها، دون أن تجده، لتفتح لها الباب وصيفتها بثينة، ومما عقّد الأمر أنها بقيت قرابة خمس دقائق داخل السيارة قبل أن يعود. ركب مرتبكاً، فكّر أن يقول شيئاً، كأن يعتذر أو يتأسّف على إهماله، أو أن يشرح لها الظرف القاهر الذي اضطره إلى الحمام، لكنه لم يقل شيئاً أبداً، وأقلقه أنها لم تقل شيئاً، ولم تشتمه، ولم تقدّم بعض التعليمات المعتادة إلى بثينة، وما يتوجب عليها أثناء حفل الافتتاح.

بعد يومين فقط من تلك الحادثة، مجرّد يومين، غامر لحظة انتظاره خروجها من إحدى المناسبات الاجتماعية، بأن اجتاز الشارع كي يشتري علبة سجائر مارلبورو أبيض، في اللحظة التي انتظر فيها أن يعيد له البائع ستة ريالات، كانت تركب السيارة وقد لمحها عن بعد، فقفز تاركاً باقي صرف الريالات للبائع، عابراً الشارع المزدحم بعد أن كادت أن تدهسه سيارة كابريس بيضاء مسرعة، وركب، ثم أدار المحرك بارتباك ووجل. بعد أن دخلت القصر بدقائق جاءت الأوامر بأن تُسحب مفاتيح السيارة من السيد أنور عبدرب النبي، وتُسلّم إلى توفيق، على أن تُنهى إجراءات المذكور وتسلم له باقي استحقاقاته.

صحيح أن توفيق يعرف قيادة السيارات قليلاً، لكن الأمر مختلف

www.ibtesama.com

جداً، فلم تكن قيادة سيارة فارهة جداً مثل الرولز رويس تشابه قيادة سيارة الهاي لوكس تويوتا الوانيت. ولم يكن حمل الأغراض والأرزاق في صندوق سيارة وانيت يشابه التشرّف بإيصال العمّة إلى مناسباتها المهمة.

في السابق كان توفيق يتوقّف بسيارته الوانيت عند البوابة الخارجية، سائلاً أبو لوزة اللابس قبّعة زيتية، ذات أذنين صوفيتين على الجانبين: أي خدمة يا بدوي؟ فيخرج البدوي أبو لوزة من كشك الحراسة متبختراً ببطء، وينحني على نافذة السيارة المفتوح نصفها: وين رايح يا زول؟ يتمازحان قليلاً، ويتشاتمان بضحك ساخر، ثم يوصيه أبو لوزة بأن يحضر معه حلاوة طحينية وجبنة بيضاء ربع كيلو، ولا ينسى فِكس أبو فاس معهما.

بعد أن خرج السائق الخاص توفيق في أول مهمة رسمية له بسيارة الرولز رويس العشبي، لم يكن أبو لوزة قادراً على أن يطلق ضحكة ساخرة منه، كل ما فعله أن أدى التحية بيد مفرودة، وجسم مشدود تجاه الزجاج الخلفي المظلل، وهو لا يعلم إن كان ثمّة أحد يجلس في المقعد الخلفي أم لا. إن كان أحد يراه من خلف الزجاج المظلل أم لا يراه أحد، ولا يكترث به أحد، ولا بتحيته العسكرية الاعتيادية. إن كان هناك من يجد فرقاً واضحاً بينه وبين كشك الحراسة الخشبي، بين تحيته الخشبية وبين الكشك الخشبي.

www.ibtesama.com

الخطيئـة والعقـاب

كنت أحلم أن أكون عسكرياً، منذ الطفولة في دار الحضانة أحببت البدل العسكرية. كانو يسمونني في الدار: العسكري!! أما المربية المصرية جمالات فقد كانت تسميني: اللواء عبد الناصر!! كانت تكره الرئيس جمال عبد الناصر، وتشتمه بمناسبة وبدونها، فتساعدها الأخصائية الاجتماعية سلمى، والنفسية جواهر. كانت تتعالم عليهما بالقول إنه أكل الشعب المصري، ودمّر اقتصاده! فكانت الأخصائية سلمى تقول إنه ليس عدو الشعب فقط، بل كان عدو الله والدين! تضيف الأخصائية النفسية جواهر: كانت لديه أمراض نفسية، كان مصاباً بداء العظمة، كان معقّداً!!

كانت المربية جمالات تكرهني إذن، وقت أن لقّبتني الزعيم عبد الناصر!! كانت تريد أن تقول إن الرئيس عبد الناصر مثلي لقيط

www.ibtesama.com

وعدواني، وإنني مهووس باللباس العسكري بسبب عشقي للتسلط والاستبداد، وضرب أطفال الدار الآخرين.

كان طراد في الصالة يتابع بعينيه الأسطر المكتوبة بخط رديء في دفتر أبو أربعين داخل الملف الأخضر، تمثل يوميات حقبة للسيد «ناصر عبد الإله»، يقلب الصفحة:

جاءت مرة امرأة مصرية ضخمة بصحبة المربية جمالات، وحين سمعت جمالات تشخط: يا زعيم.. يا عبد الناصر.. رايح على فين؟ كنت متجهاً نحو برّادة الماء دون أن أستأذنها كما يفعل الأطفال. يستأذنون في كل شيء، لشرب الماء ورمي المخلفات، والنوم والحمام و.. و.. إلخ. لماذا لا نتصرف مثل كل البشر، لماذا نستأذن في كل صغيرة وكبيرة، لماذا لا نحس أننا مثل الآخرين، أننا في بيوتنا، كي نتصرف مثلهم بتلقائية؟ التفتُّ بعد أن سمعت زعيقها في الممرات، فرأتني المرأة الضخمة بصحبتها، ثم ضحكت وهي تنظر في عيني المطموسة قائلة بصوت مسموع: ده مش عبد الناصر! ده يمكن موشي ديان! ما تبصّي في عينه!! ثم ضحكتا بصخب حتى امتلأت عيونهما بالدموع. التقطتُ الكوب البلاستيكي الأزرق وملأته بالماء وشربت. عدت إلى غرفة أسرتي، وما تزالان تضحكان بشدة.

لم يكف أن أولد مرمياً في كرتون موز، قرب مسجد عبد الله بن الزبير، ولم يكف أن تهاجمني قطط متوحشة في الشارع وأنا لا أملك إلا أن أبكي بشدّة، ولا يكفي أنني لا أعرف من هو أبي؟ ومن هي أمي؟ ومن هم إخوتي وأخواتي؟ وأين هم الآن؟ ولم لا يأتون ليأخذوني؟ ولم يكف أنني مهان داخل المدرسة، وأنني لا

www.ibtesama.com

أتمتع بالأسماء المنتهية بأل التعريف، مما يؤكد أنني نكرة!! ولم يكف أنني محروم من حلمي وطموحي بأن أصبح عسكرياً، إذ لا يسمح لي النظام بذلك!! كل ذلك لا يكفي أبداً!! لأكون في نظر هاتين اللصتين رئيساً مستبداً وظالماً كما تقولان، فقط لأنني أحلم أن أكون عسكرياً!! بل إنهما لم تكتفيا، بل جعلتاني إسرائيلياً يهودياً وقاتلاً، لأنني لم أجد من يدفع عنّي، وعن عيني الأذى، وأنا في المهد!! آآه، لو أنني فقدت عيني في الحرب، لكنت دمرتكما بقذيفة تطيّر رأسيكما أيتها اللصتان قبل أن أفقدها!!

المهم ما علينا، أردت أن أوثق اليوم حكاية خروجي من الدار وعودتي إليها ثانية!! بعض الأطفال طبعاً يغادرون الدار، بعد أن تتبناهم أسر حقيقية خارج إطار الحضانة، يسمونهم أسراً بديلة، ويعَيشون معهم مثل أطفالهم، وغالباً ما يتعرضون للإهانة والأعمال الشاقة والاستغلال، كما نسمع من إخواننا الذين يعودون مجروحين جسدياً ونفسياً.

جاءت إلى الدار إحدى السيدات النبيلات، استقبلها من في دار الحضانة، ومدير الدور، والمشرف العام، ووكيل الوزارة، وكثيرون غيرهم. قالوا إنها إحدى الشخصيات البارزة في المجتمع، كانت مصحوبة بالوصيفات الأنيقات. قامت بجولة على أقسام الأسر، وكانت تمازح الأطفال وتحتضنهم وتقبلهم، وتُلتقط لها الصور التذكارية معهم. كنت أحد هؤلاء الصغار الذين داعبتهم واستلطفتهم بالأسئلة: وش اسمك يا شاطر؟ كم عمرك؟ رحت المدرسة؟ وغيرها من الأسئلة المكرورة.

بعد يومين فوجئت بهم يرتبون ملابسي وأوراقي ويقيمون لي حفل

www.ibtesama.com

وداع مبسط مع إخواني في الأسرة. رحلت مع سائق أسود على سيارة فخمة وغريبة. كنت طوال الطريق أنظر إلى ممسك باب السيارة الداخلي المذهّب، وأمدّ يدي نحوه، فتمسك بيدي امرأة سمراء جميلة، لها رائحة رائعة، وهي تردّد: عيب يا حبيبي لا تلمسه!! كنت أنظر نحوها، وأنظر نحو السائق، ولا أعرف إن كانت تحادثني أم تحادث السائق. صارت تشغلني بالدردشة طوال الطريق: أنا اسمي بثينة. إنت اسمك إيه؟ قلت باستحياء وخجل شديد: ناصر!! لم أكن انطق الصاد جيداً، إذ أستبدلها بالثاء. عاجلتني ممازحة: ناثر!! ناثر إيش؟ ثم ضحكت وضمّتني إلى صدرها، حيث رائحة تشبه رائحة الحدائق والزهور الصباحية.

أبعدتني قليلاً عن صدرها، وهي تشير للسائق: عم توفيق، لا تنس تمرّ على السوبر ماركت، لدينا أغراض مستعجلة، وأخرجت من صدرها ورقة، ودفعت بها إلى السائق الأسود، الذي عرفت اسمه حالاً: عم توفيق!!

غرفتي في القصر الضخم تعادل ثلاث غرف أسر في دار الحضانة، بل كان الحمام، حمامي الخاص، أكبر قليلاً من غرفة الأسرة التي نعيش فيها ثمانية أطفال، أمّنا مرّة جمالات المصرية، ومرة لمباي الفلبينية، أما أبونا فهو بابا سعد، الذي يمرّ علينا فيأخذنا بسيارته أو بسيارة الوزارة في جولة سريعة تنتهي بسوبر ماركت بندة.

في المساء الأول قابلتني العمّة في بهو القصر، أجلستني وصارت تمسح على رأسي وتلاطفني، وهي تقول لي: اسمك ناصر، صح؟ فأهز رأسي خجلاً. تعرف مين أمك؟ قلت لها: جمالات!!

www.ibtesama.com

هزّت رأسها بالنفي. قلت: سلمى!! وأنا أقصد الأخصائية الاجتماعية. هزّت رأسها بالنفي. قلت: جواهر!! أعني بها الأخصائية النفسية. قالت: لا.. أنا ماما يا حبيبي!! قرّبتني من صدرها وضمّتني بقوة.

كانت الأيام الأولى في القصر صعبة للغاية، كيف تجلس إلى الطاولة، كيف تضع منديل المائدة على حضنك، كيف تمسك بالملعقة والشوكة، كيف تأكل، أين تبدأ وأين تنتهي، كيف تنهض وتترك المائدة، كيف تمشي في ردهات القصر، كيف تتكلم مع الآخرين، كيف تبتسم، كيف تنطق: أوكي!! أو: قود مورننق، أو: هاااااي!! وتكون ممطوطة إلى أقصى حدّ. كيف تقول: ثانكس ألوت، وأنت ترخي ابتسامة شكر وامتنان. كيف تنطق: مااام!! وكيف تقبّل يدها كل صباح!!

تعلمت بصعوبة متى وكيف أدخل الحمام، كيف أبقى لساعات هناك، وأن آخذ في الاستحمام على مهل، بمساعدة بثينة أحياناً، أو صفيّة في أحايين أخرى. حتى لو أردت الخروج إلى حدائق القصر للعب والتسلية، يجب أن ألعب بنظام، وليس في فوضى!! يا ألله كيف ألعب دون أن أنكش التراب، وألوث ملابسي وحذائي، وأقذف بدراجتي الهوائية في أي زاوية من زوايا القصر. كنت أتمنى أن يغيب عن ناظري البستاني العجوز، وأن يغفل عن متابعتي، لأقصف الأشجار الظليلة، وأطارد العصافير الضّاجة، وأقذف بالحجارة القطط ذوات الفراء الناعمة جداً!!

كم كانت نهايتي تعيسة في هذا القصر الكئيب، وعلى يدي من؟ على يدي البستاني العجوز وهو يحمل مقلم الأغصان ويتنقّل بين

www.ibtesama.com

الحدائق الفارهة، مثل كابوس ثقيل. كنت ألعب صباح خميس لابساً بذلة بنفسجيّة، على صدر القميص رسم لوجه بنك بانثر!! كنت أركض تحت الشجر وأجمع أنواع الورق اليابس والزهر الجافّ، وأضعها على وجه بنك بانثر بعد أن عضضت طرف القميص السفلي بأسناني، لأصنع منه ما يشبه السلّة!! فجأة شعرت أن مثانتي ستنفجر، فأخذتني رغبة شديدة في التبول. تلفّتّ يميناً وشمالاً، ثم أنزلت مطاط البنطلون وأطلقت مائي تحت الشجرة!! لم أكد أشعر بالراحة حتى تعالت صرخات البستاني العجوز، وهو يهبط عليّ فجأة ويشدّ أذني حتى أخرج من الحديقة، ثم يمسك بعضدي ويقودني إلى الداخل، حيث العمّة تتصفح صحف اليوم!! أخبرها عن خطيئتي شاعراً بالزهو والظفر، منتظراً المكافأة. أشارت له بعينيها أن يخرج، ثم سألتني: لماذا؟؟ ألا يوجد لك حمام خاص؟؟ كنت أود أن أقول لها: بلى، لدي حمام خاص وشخصي وفاخر!! لكنني فوجئت بتدافع السائل في مثانتي. فماذا أفعل؟؟ لم أقل شيئاً. بقيت أدلي برأسي إلى الأسفل صامتاً، بينما هي تقتلني بصمتها وتحديقها الذي كان بمثابة جلد حقيقي بالسياط!!

كان عليّ أن أغادر الجنّة، جنّة القصر العظيم، بعد سوأتي المشينة تلك، وأن أهبط إلى الأرض مع أصحابي وإخواني في دار الحضانة. إذ بعد يومين أو ثلاثة، وربما أكثر من ذلك، لست أتذكّر ذلك جيداً، أخذني السائق الحبشي على سيارة الوانيت، بعد أن وضع أغراضي وحقائبي كلها، دون أن أنتبه، في الصندوق الخلفي، وسرنا في شوارع كثيرة، قبل أن نصل حي غميته، حيث دار الحضانة الاجتماعية، فتحوا لي الباب، ورفضت النزول، حاولوا مراراً، فكنت أبكي بشدة، وأنا أمسك بباب سيارة

www.ibtesama.com

الوانيت. وأصرخ: والله توبة، ما عاد أعودها، رجّعووووني!! كنت أعدهم بأن لا أتبول في حديقة القصر مرة ثانية، لكن حارس الدار، بمساعدة السائق، استطاع تخليصي من السيارة، وسحبي عنوة إلى داخل الدار.

بينما كان الحارس متأثراً للغاية وهو يسحبني إلى داخل الدار كما تسحب الطريدة أو الضحية إلى مذبحها، كان وجه السائق الحبشي شرساً، وهو يخلّص يدي من ممسك الباب، وكأنه يتخلّص من آفة ضارة، أو حشرة عنيدة، لم يكن لطيفاً وحسّاساً كما العم توفيق، ليت العم توفيق هو من أعادني إلى الدار، ربما كان طمأنني ولو كذباً أنني سأزور الدار، ثم سيعود في المساء أو الغد ليأخذني إلى القصر.

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com

اكتفـــاء

بعد أن تجاوزتُ مأساة اللعينة زهيرة، ومؤامرات أم كلثوم معها، وسخريتهما، وانتقالي إلى القصر الجديد، ووقفة الحظ معي وقفة رجل شهم، لأكون السائق الشخصي للعمّة، كنت أعيش حياة مطمئنة وهادئة، قبل أن أفقد عملي كسائق، وأتحول إلى بستاني في حدائق القصر، بعد موت البستاني العجوز مرزوق.

قيل لي، إنك لم تعد صالحاً لقيادة السيارات، لقد كبرت على ذلك، وأفضل عمل مناسب لك هو أن تكون بستانياً في حدائق القصر. وكما تسلّمت مفاتيح الرولز رويس من أنور عبد رب النبي، قمت بتسليم المفاتيح إلى السائق الحبشي الشاب أحمد. وتسلّمت الوظيفة الأخيرة قبل القبر، ألم يذهب البستاني العجوز إلى القبر؟ هكذا هي الحياة هنا، كل كائن له دور محدّد في حياة القصور، بعد أن ينتهي تنتهي معه حياته هنا. كم كان دوري كئيباً

www.ibtesama.com

هنا، ودور أنور ومرزوق وأحمد وأبو لوزة وآخرين. كم كان أسوأ أدوارنا هو دور الطفل ناصر، الذي جيء به ليكون ابناً بالتبني. لم تكن العمّة تحبل، ولم تنجب لسنوات طويلة، فكان شعور الأمومة طاغياً، ولا بدّ من ملئه بأسرع وأقصر طريق!! كان ذلك الطريق هو الذي سلكته بالرولز رويس العشبي إلى دار الحضانة، ليكون الحظ التعس لك أيها الصغير ناصر!! لم تكن محظوظاً كما يرى البعض من أطفال وأخصائيين وأخصائيات وغيرهم. أبداً لم تكن محظوظاً، وأنت تؤدي دوراً محدّداً ومؤقتاً، انتهى بمجرد أن شعرت العمة بأعراض الوحم والحمل. لتعد أيها الصغير ناصر إلى دارك، كما عدت أنا إلى الحدائق، التي كانت تشبه الغابات والأحراش حول النيل الأبيض.

لتعد أيها الصغير النبيل، فقد أتى الابن الحقيقي، ولتذهب أنت أيها الابن المزوّر، يا سلالة القطط والكلاب الشاردة، لتذهب أنت إلى الجحيم، فهي التي ستتسع لك بأبوابها الثلاثة، أو السبعة أو الواحد وعشرين باباً، ستضم أحزانك وطفولتك التائهة.

بعد سنوات من قص الأغصان الزائدة، وجزّ العشب والحزن والملل، صدر الأمر الملكي بعتق العبيد، فلم أمت تحت ظل شجرة كما فعل البستاني العجوز مرزوق، بل كان لا بد أن أخرج من بوابة القصر، حاملاً ورقة حرّيتي، ضالاً في الشوارع والحارات، لا أملك قوت يومي، ولا أعرف صنعة أتكسّب منها، ولم أتقن عملاً، غير أن أقود سيارة، ولست نافعاً لذلك، أو أن أقصّ شجر الرياض، وأجزّ حزنها الطويل.

لم أكن أحفظ في ذاكرتي الهرمة غير ليالي طفولة بعيدة ومنسية،

www.ibtesama.com

لم أكن أرى الشوارع غير ضفاف نهر النيل، ولم تكن رائحة عوادم السيارات غير رائحة طيور النهر، بل إن هديرها وأبواقها لم أكن أسمعها سوى غناء بعيد جداً، كنت أسمع أصوات مغنين منسيين، لم أعرف كيف طلعوا بهذه الحدّة، كان خليل فرح يغني، كان سرور وكرومة وغيرهم، ارتفع صوت أحدهم رائعاً ووحيداً وحزيناً:

حبيبي اكتب ليْ
وانا اكتب ليك
بالحاصل بي والحاصل بيك
الحاصل بي أنا شوق وحنين
اقيم الليل آهات وأنين
اذكر جلوسنا على الربى
نتساقى كاسات الصبا
أبسم إليك تبسم معاي
على صوت الناي
وأنا يامناي
طول حياتي بغنّي ليك

كان الصوت يعلو شيئاً فشيئاً في شوارع المدينة التي بدت غريبة وخالية، كنت أسمع الصوت، وأرى.. أرى النساء يرقصن، يتمايلن بأجسادهن الرطبة، أرى الرجال مبتهجين وهم يراقصونهن.. آه.. يا توفيق.. ما الذي جاء بك هنا؟؟

بعد يومين من التيه والتسكّع في الشوارع والمراكز التجارية عدت إلى القصر، وطلبت أن أبقى مؤقتاً، حتى أدبر عملاً يقيني شر الزمان

www.ibtesama.com

وسطوته. لم تكن تلك الحرية، وأي حرية بعد أن راح عمري دون عمل أو وظيفة أو زوجة أو طفل يؤانس وحدتي وعزلتي. كنت مثل طير يُفتح له باب القفص فلا يطير، ليس لأنه لا يفهم الحرية، وأن يكون جناحاه حريّن وطليقين، أبداً والله، ولكن لأنه أكثر حكمة ودراية، فقد تعلّم في القفص أن يأتيه الحبّ والماء، فكيف له توفير ذلك في الخارج وهو لم يتعلّم ذلك من قبل.

ذات صباح قرّرت أن أغادر القصر إلى الأبد، فخرجت من البوابة، تلك التي بقي فيها أبو لوزة أكثر من سنتين قبل أن يطرد هو أيضاً، عفواً أقصد قبل أن يستغنى عن خدماته. فكّرت أن أعمل حمّالاً في ميناء، وحين سافرت وجدت العمال الآسيويين يملأون الميناء. عدت وقلت لنفسي سأعمل بائعاً، لكنني لم أكن مناسباً ولائقاً، لم أكن أحمل مؤهل وجه لبناني نظيف ولامع وأبيض يغري الزبونات بالدخول إلى معارض الملبوسات أو العطور أو أدوات التجميل. فكّرت أن أعمل عاملاً أو بنّاءً أو مبلّطاً، لكنني لن أستطيع منافسة العمال الباكستانيين، ولن أكون مقبولاً بينهم. قررت أن أبحث عن عمارة:

– لأعمل حارس عمارة إذن.

هكذا قرّرت، وعملت لسنة ونصف، قبل أن يبيع المالك عمارته، ويطردني، عفواً أقصد يستغني عنّي المالك الجديد، الذي يحضر بدلاً عنّي عاملاً بنغالياً رخيصاً.

بعد ذلك عملت بواسطة صديق سوداني، كان يعمل محاسباً في إحدى الوزارات، عملت كمراسل في البداية، ثم كعامل قهوة أو

www.ibtesama.com

قهوجي، وبقيت سنوات طويلة أجرّ جسدي الثقيل بين المكاتب، وأحمل صمتاً وسرّاً كبيراً في داخلي، لا أبوح به لأحد.

لم أكن مثل طراد البدوي الذي تورّط بممازحة بعض الموظفين الساقطين، كنت دائماً أضع بيني وبينهم حاجزاً، حتى أن معظمهم كانوا ينادونني: عم توفيق!! ربما تقديراً لعمري، أو لصمتي المحيّر بالنسبة لهم.

أول مرّة دخل إليّ في غرفة إعداد القهوة، صافحني وقال أنا طراد، مراسل جديد معكم هنا، في الإدارة المالية. رحبت به بوجه محايد، لكنني بعد أن زارني في غرفتي في حي المربّع، أحسست أن ملامحه ليست غريبة عليّ، كأنما قذف في وجهي ضحكة أو دعابة ذات زمن فائت. بعد أسئلة طويلة عن الحياة والأعمال التي مررنا بها، عرفته، وقت أن قال لي: اشتغلت عسكري، ما هو عسكري عسكري، لكن كنت حارس بوابة قصر أحد الأكابر!!

صرخت بغتة: أبو لوزة، وعانقته بفرح، رغم أنه كان محايداً، ولم يبادلني شعوري الفرح بأن وجدت صديقاً، قد يؤنس وحدتي ويأسي من الحياة.

حكيت له في ليال طويلة عن حكايتي منذ الهروب والشتات من أعين الجلاّبة، حتى الوقوع بأيديهم، وتنقّلي معهم، ومروري بسوق شندي، وبربر، وميناء سواكن على البحر الأحمر، وسكني في محلّة المظلوم، وبيعي لأبي يحيى الحلواني، وخصائي، وعملي لدى العطار وابنته خيرية، وسفري إلى هنا، وعملي في

www.ibtesama.com

القصور خادماً وسائقاً وبستانياً. كان طراد أو أبو لوزة ينصت إليّ بتعجّب، ويحكي لي بحزن حكاية فروسيته، وبطولاته في قطع الطريق والسلب ومروءته، وورطته مع صاحبه الحميم نهار، وقد قبض عليهما حرّاس إحدى قوافل الحج، كنت أتساءل: لماذا الذاهبون إلى الحج يرتكبون بنا هذه الفظائع؟ أي حجّ يسعون إليه إذن؟؟ أخذوني من حضن أمي، وسرقوني ثم أدخلوني هذه البلاد بحجة الحج، وأنت يا طراد فقدت صاحبك نهار وأذنك التي أورثت فيك كل هذا الانكسار ممن يتجهون إلى الحج!! هل سيؤدون حجّاً صادقاً من غير رفث ولا فسوق لكي يعودوا إلى أهلهم كما ولدتهم أمهاتهم، بذنب مغفور وسعي مشكور؟؟ أي سعي يشكرون عليه وهم يقتلون فينا الروح والرجولة؟؟ هيّا قل لي يا طراد. أكمل حديثك لي، ولنضئ ليل الرياض، النائمة كعجوز بدينة، بالحكايات والحزن الطويل.

www.ibtesama.com

بطولـة الذئـب

في صالة المغادرة كان طراد يتلفّت باحثاً عن صاحب الملف الأخضر، وهو يسأل: كيف جاء ملف بأوراق رسمية إلى هذه الصالة؟؟ كيف خرج من أرفف وخزائن الجهة الحكومية التي تبنى هذه الحالة؟؟ هل هذا الشخص ناصر عبد الإله هو ناصر الذي حكى عنه توفيق، وعن طفولته؟؟ لا بد أنه هو، ألم يكتب في مذكراته التي قرأت في الدفتر ذي الأربعين ورقة أنهم أخذوه من دار الحضانة لكي يعيش داخل قصر، وليكون ابناً لهم، ألم يتحدّث عن سائق أسود اسمه توفيق يقود سيارة رولز رويس عشبي!! ولكن كيف لا أتذكّره إطلاقاً فترة عملي حارساً لبوابة القصر؟؟ هل جاء بعدي أم قبلي؟؟ لا أعرف.. كانت الهواجس تطوف بذهن البدوي الهارب من عنف المدينة، وهو يفكّر بأن الصحراء تجعلك ترى عدوّك أمامك، وتستطيع أن تنازله في عراك متكافىء، لكن لعنة المدينة التي لا تختلف عن الجحيم، أنك تكافح ضد أعداء لا

www.ibtesama.com

مرئيين، أعداء لا يمكن أن نراهم بالعين المجرّدة، فهل يمكن أن نكافح ضد حطب جهنم التي تأكل أخضرنا ويابسنا؟؟ لا أظن!!

في الصالة ذاتها لم يزل طراد يسوق الذاكرة أمامه مثل جِرَاء تتسابق بأذيال مهزوزة، لم تزل صورتهما، هو ونهار، أمام عينيه برأسيهما المدفونين في حلك صحراء النفود. كان يظن أن وهاد الرمال الحمراء وهي تصطبغ بحمرة الشمس قبل الغروب لا تختلف عن مهاوي جهنم الحمراء.

لم تكن قطرات العرق الطافحة في فروتي رأسيهما وعلى عنقيهما بسبب خوفهما من الموت عطشاً وهما مدفونان في شراسة الرمل، بل كانا يشعران أن لحظة الانتقام قد حلّت، كيف لا، وملامحها بدأت تظهر تباعاً، من شجيرات الشفلّح التي بدأت تتمدّد حولهما دونما اكتراث، وحتى الرياح التي لم تحفظ رائحتهما داخل جيوبها الكثيرة، بل إنها أمعنت في سوق رائحتهما الآدمية صوب كل سباع البرّ. لم يعد الآن سوى أن تقدم سباع البرّ، لا لتحميهما عن بعد، وتتأمل فتنة قوتهما وشجاعتهما الهائلة، بل لتفترسهما مثل فرائس مولمة ودافئة.

ها هو الذئب سرحان يهبط من تلّة الهامل المشرفة على درب الشفلّح، وهو يكنس بخطمه الرائحة الآدمية المنسابة بفتنة فوق الرمل. كم مشى هذا الذئب مصاحباً طراد في غزواته وعراكه وسهره قرب نار الغضا، وهو يشوي الطرائد بعد أن وقعت بين يديه القويتين. كان يسهر قربه، وكان يمضي بعد أن يطوّح نهار بقطعة من جسد الطريدة نحوه. يلتقطها الذئب بأسنانه ويهرول بعيداً غائباً حتى الصباح التالي.

www.ibtesama.com

هذه المرّة لن تشعل النار يدا طراد، ولن تقلّب الشواء، ولن تطوّح بنصيب الذئب نحوه، بل سيكون أسيراً لا يملك حق الدفاع عن نفسه، كمن تقيد يداه إلى عمود خيمة وتكال له اللكمات تباعاً، على وجهه وصدره وبطنه، على كل أجزاء جسده، فلا يحق له سوى أن يبصق دماً وحزناً وهزيمة مرّة.

الذيب جاء. همس نهار برعب واضح وبصوت متقطّع، كان الذئب على بعد خطوات قليلة، وهو يمشي كأعمى تقوده الرائحة، ولحظة أن رآهما، أو رأى رأسيهما النابتين من قسوة الرمل انسحب بجذعه قليلاً إلى الوراء، وخفض برأسه نحو الأرض كما لو كان سيختبيء عن الطريدة. راقبهما لوهلة قبل أن يمشي نحوهما بطريقة تشبه الزحف. تجمّد برهة أمام نهار، مصوّباً نظره تجاه عينيه، محدّقاً فيه بدقّة وشراسة، لم يكن يغمض ولا يغفل عن فريسته ولو لثوان. تحرك نحوه فجأة، وخبطه بقائمته الأمامية، فصرخ نهار بشدّة، وهو يزيح وجهه عنه، اندفع الذئب بأسنانه المشرعة كالموت ونهشه. زعق نهار وهو يحاول أن يحرّر وجهه من شراسة الذئب. زعق حتى ارتبك الرمل، وبكى الطلح البعيد، وأغمض الشفلّح وهو ينكمش على أغصانه بحياء، وحاول الرمل أن يخفّف قبضته على جسديهما، لكن الوقت لم يعد كافياً ليتحرّرا من جوع ذئب البراري.

وجه نهار الذي كان أكثر امتلاءً تبدّدت أنحاؤه، بعد أن نهش الذئب خدّه الأيسر، ثم قطف أنفه وسط زعيق يخلع شجر الصحراء حزناً، زعيق صلّت لأجله الفياض والخباري والشعاب والأودية، زعيق مدّت لأجله أشجار العوشز هاماتها نحو السماء، وتضرّعت لضعفه الزواحف والعقارب والطيور الحائمة والنائمة

www.ibtesama.com

في أعشاشها الصخرية. لكن السماء آنذاك لم تبادر ولم تتحرك، لقد كانت تغط في نوم عميم ووافر.

لحظة أن جزّ الذئب فم نهار وشفتيه، ملتقطاً طرف لسانه توقّف الزعيق المقدّس، ولحظة أن نزع بأنيابه القصبة الهوائية مال رأس نهار جانباً مثقلاً مثل ثمرة ناضجة وقد تدلّت بثقلها من الغصن. مال رأسه حتى انطرح وقد توقّفت أنفاسه اللاهثة، بينما روحه طارت تولول في ليل الصحراء، تضرب الشجر والرمال والصخور وتبكي. تتبع القوافل والمسافرين والحجّاج وتسائلهم، تشدّ أذيال الجمال وتحاصر الرجال وتبكي. تطير روحه عالياً تجاه السموات البعيدة، وتصرخ في النجوم الباسمات النائمات، ثم بيديها تطفىء وهجها. لم تعد النجوم مصابيح تزين السماء بعد أن انطفأت بفعل يدي روح نهار الفارّة في أنحاء البراري والسموات العارية.

بعد أن خمدت سطوة الجوع، دار الذئب حول بقايا نهار ورأس طراد المرعوب والطافر عرقاً. كان طراد قرّر في داخله أن لا يزعق أو يصرخ أو ينبس نهائياً، فليس ثمّة جدوى في ذلك. أغمض عينيه وحاول أن يزرع الطمأنينة في جوفه. كان الذئب يجرجر جسمه المتثاقل حول طراد. بينما أغمض طراد منتظراً خبطة ينخلع لها وجهه، أو جزّة مخلب رهيف وقاس، أو عضّة بأنياب مسنونة كرماح.

أثناء ذلك الانتظار، وبينما يغمض طراد عينيه، شمّ رائحة الذئب لصقه، وأحس هواء منخريه وهو يتنفّس في وجهه، ثم شعر بفروة الذئب الناعمة تلامس عنقه المغمور بالرمل. فتح طراد عينيه ببطء

www.ibtesama.com

وحذر، فرأى رأس الذئب مطروحاً تحت ذقنه مباشرة، وهو يغمض في استراحة الخارج من عراك طويل ومنهك وشائك.

بقي طراد للحظات وهو يخفض عينيه نحو الذئب الساهم بين حدّ النوم وحدّ اليقظة، ثم يرنو بعينيه نحو السماء البعيدة ويتمتم بأدعية الخوف والرجاء والوجل. طال انتظاره ساعة الهلاك، وقد غفا الذئب بعد أن هدّه التعب. كانت صورة وجه نهار وهو يراوغ بوجهه الممتلىء أنياب الذئب المشهرة لا تفارقه. زعيقه وصراخه وبكاؤه الهائل لم تزل تتردّد أصداؤه في أذني طراد. تعالى الحزن في قلب طراد، وتجمّعت العبرات في جوفه، ثم تصاعدت نحو حنجرته، وهي تتشكّل في نوبة بكاء. حاول طراد أن يحبس نوبة البكاء والدمع تلك حتى لا يوقظ الذئب النائم، لكنه لم يستطع أن يتماسك طويلاً. إذ قبل منتصف الليل بقليل تجمّع ماء عينيه، حاول أن يحبسه داخل مآقيه، حاول كثيراً أن يمنع الدمعة الرجراجة من أن تنزل من عينه، ولكن..!!

كانت الدمعة في لحظة حاسمة وخطيرة وهائلة تسقط. تنفلت من عينه، سائرة ببطء وهي توازي أنفه، متهادية على خدّه الجاف، ثم متدافعة على طرف شاربه، لتهوي في لحظة خاطفة على وجه الذئب، الذي فزّ على عجل ولوّح بأسنانه المشهرة كسيوف لامعة، قاطفاً بها أذن طراد اليسرى من جذرها وهو يلوك صوانها بين أسنانه، ناهضاً ومبتعداً بضع خطوات.

كانت صرخة طراد المباغتة وقد جزّ الذئب أذنه اليسرى كفيلة بأن توقظ الدواب والعقارب والحيّات في الرمل. كانت صرخته

www.ibtesama.com

جعلت الذئب الشبع يغادر وهو يلوك فسقاً صوان الأذن المقطوفة كوردة بيد صبي لاهٍ وعابث.

لم يكن الذئب ليغادر إلى الأبد، فقط كان ذاهباً في ليل الصحراء، باحثاً عن مكان يليق بغفوة ذئب يقظ وشرس، حتى إذا ما لاح بياض الفجر، عاد قافزاً من تلّة الهامل، نحو درب الشفلّح، مفتتحاً نهاره بوجبة لائقة بملك البراري والشعاب والأودية.

بقيتُ كل الليل أتحلحل بجسمي داخل الرمل، أهزّ بمعصميّ وأنا أحاول أن أتخلّص من حبل قيدني به الكلاب، كلاب الحج الذاهبون إلى مكة للدعاء، وهم لا يملكون الشهامة وكرم العفو والتسامح. آه.. ليتهم قتلونا بسيوفهم، أو ليتهم أطلقوا علينا النار وريّحونا من العذاب. قال أمير القافلة: ما نريد نوسخ أيدينا بدمهم واحنا بنيّة الحج!! أي حجّ، وأنت قتلتنا ببطء وبعذاب ما له مثيل. صرت طول الليل أقاتل حتى أتخلص من القيد. كان الذي قيّدني استعجل بعد أن بقي يقيّد نهاراً طويلاً. كان شدّ رباط نهار مضبوطاً، وكانت القافلة ستتحرك، فربط يدي بسرعة وهو يدفعني إلى حفرة الرمل، ويهيل علينا الرمل من كل الجهات. قبل الفجر بقليل كنت حررت يدي من القيد، ثم صرت أهزّ جذعي في الرمل، وأنا أطلع منه شيئاً فشيئاً. بعد أن أضاءت الشمس في يوم جديد كانت يدي اليمنى خرجت من الرمل كاملة، وما هي إلاّ لحظات حتى تمكنت من الخروج بجسمي كاملاً.

«أقسم أنني كنت أتمنى رؤية الذئب، لو جاء تلك اللحظة لافترسته وجندلته وسرقت كبده، وصنعت من فروة جلده مبولة،

www.ibtesama.com

أتبول فيها كلما عنّ لي ذلك». كان طراد يفكّر وهو يمشي تجاه القبائل التي تعرفه، تلك التي أنكرته وكذّبت روايته تلك. فصارت أذنه المقطوفة أضحوكة القبائل وسخريتهم.

من هنا بدأت سيرة الإهانة، إهانة كرامته وشجاعته ورجولته، ففرّ من الصحراء كلها، ومن الفياض والخباري التي أحبّها، والشجر والدحول التي آوته وأحبّته. دخل المدينة دون أن يعرف أسرارها ومكائدها، دون أن يرى عدواً واضحاً ومحدّداً كي ينازله منازلة الشجعان. عمل عاملاً وبنّاء في قصور المربع، ثم حقر نفسه وهو يعمل جنباً إلى جنب مع رعاع المدينة، وتحوّل إلى عسكري، فشعر بذاته، وقت أن عمل حارس بنك أولاً، قبل أن تسند حراسة البنوك إلى شركات مختصة، ويفقد عمله. ثم حارس بوابة قصر قبل أن يطرد منه. ثم جرّب أن يكون شحّاذاً، لكنه تمنّى وقتها أن يعود إلى الصحراء ويأخذ بيمناه بالقوة كل ما يريده. «أن أكون لصاً أو حنشولياً أو قاطع طريق أشرف من أن أكون شحاذاً». كان يقول لنفسه.

بعد أن عاش التسكّع حاول أن ينافس ماسحي السيارات الهنود والبنغاليين، خجل أن يمسح السيارات في مواقف الأسواق التجارية الكبرى، فوجد أن ساحة مواقف سيارات وزارة ما هي الأنسب. بينما هو يرشق إطارات سيارة البي إم دبليو السوداء بالماء والصابون، ويدعكها بفرشاة خشنة، كان يفكّر ويرمق البناية بين الفينة والأخرى، لو كنت وزيراً للحج، كنت بحثت عن أمراء قوافل الحج الذين سلكوا درب الشفلّح، ودرب الضيق، ودرب الشوك، وغيرها من المسالك، ودفنتهم أحياء في الرمل. لو كنت وزيراً للحج كنت بحثت عن كل قبطان سفينة شارك في

www.ibtesama.com

سرقة الأوادم، أمثال توفيق وجوهر وعنبر وغيرهم، حتى يبيعهم مثل البهائم، ثم أغرقته في البحر الأحمر».

كان طراد يحلم طويلاً داخل صالة سفر حافلات النقل العام، لحظة أن خطف شخص من يده الملف الأخضر. ارتعب طراد وهو ينظر في وجه الشاب قبل أن ينكص إلى الخلف. كان وجهه ناعماً أبيض، عينه الوحيدة واسعة وسوداء. وهي تفيض من نظارتيه الطبيتين. بينما عينه المطموسة كأن لم تخلق قط. أما شاربه فقد كان شارب شاب عشريني محفوف من الجانبين بدقة ومهارة. نظر نحوه طراد لحظة أدبر يعلّق حقيبة كتف، ويقبض على ملفه الأخضر. لم يصوّت له، ولم يتبعه، بل ظلّ يتأمله حتى ذاب في زحام الطوابير المتتابعة نحو الحافلة التي يعمل محركها، ويقبع سائقها خلف المقود.

نهض طراد ونظر في تذكرة السفر قبل أن يدسّها في جيبه العلوي، أوثق شماغه الأحمر جيداً حول وجهه، وتأكّد أن أذنه اليسرى المقطوفة قد حجبت تماماً. مشى بتثاقل بين المقاعد القليلة المشغولة بعمّال هنود وباكستانيين نائمين. اتجه نحو البوابة الخارجية للصالة، وهو يفكّر بموظفي الوزارة الملاعين، ويتذكّر الفنان الهولندي فان جوخ، ويهمس لنفسه، «هلاّ أعرتني أذنك فان جوخ، حتى أقاوم سخرية العالم. واذهب أنت مع محبوبتك العاهرة إلى الجحيم» كان الشارع هادئاً تماماً، محل البوفيه الصغير في الركن مقفل. بجواره كابينة التليفون الزجاجية وبداخلها شخص يتحدّث. ثلاث قطط نائمة عند مدخل تموينات الجسر. هدير مكيّفات الفريون المطلة على الشارع يضاعف السكون. نوافذ الشقق تخبىء أنواراً خافتة تشعر المارّ

www.ibtesama.com

بالنعاس. وقت أن اقترب طراد من كابينة التليفون كان الشخص يقفل السماعة ويغادر. رفع طراد السماعة وهو ينظر إلى لافتة شركة النقل العام، وزجاج صالة السفر. عاجله رنين الحرارة المتواصل في سماعة التليفون. فتّش جيوبه بحثاً عن عملة معدنية. لم يجد شيئاً. لمح جزءاً من نصف ريال يخمد في مجرى العملات في جهاز التليفون. همّز سبعة أرقام متتالية بطريقة آلية. بقي الرنين لوهلة قبل أن تتمطط الإجابة:

– ألووو.. مين!!
– .....!!
– فينك يا بو لوزة؟ الجماعة سألوا عنك، يا بدوي!!
– .....!!
– ماشي يا عم.. الباب مفتوح، بقى أقفله وراك وانت جاي!!!

بعد أن أقفل طراد السماعة، قال لنفسه: سوف أتجول في هذا الجحيم قبل أن أذهب إلى غرفة توفيق. وقت طلوع النور في فجر الرياض هو أحلى الأوقات، المدينة تكون مثل وجه شابة تطرد النعاس عن عينيها.

www.ibtesama.com

المعالجة وتصغير الحجم
التحويل لصفحات فردية
فريق العمل بقسم
تحميل كتب مجانية

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

شكرا لمن قام بسحب الكتاب

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبسامة

يوسف المحيميد

فخاخ الرائحة

بعد أن ضج جسدها ونضج مثل ثمرة، قادته ذات ليل إلى مكان مهجور على أطراف البلد، وما أن استوت سيارته الأجرة في نهاية طريق ترابي مهجور في أحد الأحياء الجديدة، وأطفأ نور سيارته، حتى اندفعت نحوه وطوقته، ثم جذبته نحوها في مقعدها، وجعلته يغيس حزنها ووحدتها ووحشتها، كان مثل حيوان بري صغير، لا يعرف كيف يدلف أبواب الغابة، كان يجرب بحذر وفضول ورغبة، وهي تفعل معه بصبر وحنان، تقوده من يده مثل جاهل، وتساعده حتى أدرك غايته، وبلغ المتعة كلها.

(من الرواية)

www.ibtesama.com

www.ibtesama.com